الباب الثالث

الفراغات العمرانية في المدينة العربية

يستهدف هذا الباب تحديد ملامح الارتباط المباشر بين الإنسان والمكان من خلال بحث إمكانات تسجيل جوانب الإدراك الإنساني للفراغ العمراني وتنظيم عناصره على ضوء ثبات (أو تغير) القيم الإنسانية (بين الماضي والحاضر)، ومحاولة رصد انعكاسات ذلك كله في النتاج البنائي العمراني. يركز هذا الباب على التسجيل الموضوعي المباشر لجوانب المقارنة بين ما كانت عليه الفراغات العمرانية في الماضي والأسباب التي دعت أن تكون عليه في الحاضر.

يمكن تركيز المساهمة الأولية لهذا العمل في الرصد النوعي (الكيفي) للعلاقة بين تغير القيم الإنسانية الموجهة لسلوك الإنسان- والتي تمده بقدرة خاصة لفهم الأشياء وتفسيرها وفقاً لحالته القيمية ووعيه بالقيم- وإدراكه للتغير التابع لها في النتاجات البنائية العمرانية. ومن ثم يمكن تركيز الإضافة هنا في صياغة جوانب إبراز الدور الفاعل لعناصر مجال عمارة البيئة والتصميم العمراني في التأثير على الارتقاء بفاعلية الأداء العمراني للفراغات البينية والعامة, وتحديد بعض أسس تنميتها والحفاظ على المدن الجديدة والقائمة المعاصرة.

تتضمن هذه الدراسة الإشارة إلي مجموعة من الأهداف تبدأ برصد وبيان أنواع الفراغات العمرانية التي تتناولها الدراسة على ضوء التعرف على الأحداث والنشاطات التي تمارس خلالها، وترجمتها لبيانها في المردودات البنائية المرئية وفقاً لاعتبارات قيمية إنسانية شائعة، وهو الأمر الذي يتطلب بحث العوامل المؤثرة على الفراغات، ومعايير تحديد هذه النوعيات، وشرح المحددات العمرانية المؤثرة على الإحساس بالفراغ العمراني, والكيفية التي يمكن الإنسان أن يدرك بها الفراغ ويتفاعل معه. وتنتقل الدراسة بعد ذلك لبيان ملامح كل ذلك في المدينة العربية (التقليدية والمعاصرة) من خلال مراجعة مدققة للأدبيات النظرية في مستوى المشاهدات الميدانية الأولية في مستوى آخر، وكل ذلك بقصد تتبع تأثير القيم على الناتج البنائي في مرحلة ما بعد الإنشاء وأيضاً الإشغال. اختارت هذه الدراسة المدينة العربية باعتبارها مثالاً متميزاً للمدن التقليدية (بين المدينة القديمة والمعاصرة) على تغير ملامح النتاجات البنائية العمرانية على ضوء تغير بناء الفراغ من جهة, ونتيجة لتغير التوجهات الإنسانية من جهة ثانية, ووفقاً لتباين الأطر الفكرية والحضارية لمجتمعات هذه المدن من جهة ثالثة. سوف تجعل هذه الدراسة من المدن العربية في المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية مجالاً للدراسة التحليلية.

وفي نهاية الأمر تخلص هذه الدراسة إلى بيان كيفية ومراحل صياغة ملامح مدخل عمراني- إنساني يمكن من إدراك الفراغات العمرانية باعتبارها منظماً للأداء على مستوى التصميم العمراني البيئي، وعلى ضوء مراعاة اشتراطات مناهج التنمية والمحافظة.

١. الإطار النظري والمعرفي: مدخل وتقديم

يسعى هذا المبحث إلى إيضاح بعض جوانب دراسات كل من مجالي عمارة البيئة والتصميم العمراني حول ماهية الفراغات العمرانية: فهي في أولها- ينظر إليها باعتبارها جزء من منظومة بناء موجهة نحو تحسين الأداء البيئي بكل جوانبه، تلك الجوانب التي تستهدف تحقيق راحة الإنسان ورفاهيته بالإضافة إلى تحقيق التصورات الجمالية المرغوبة للبيئة, بينما في ثانيها- هي أحد عناصر مكونات سلسلة تجربة المشاهدة للفرد والجماعة (للمقيمين والمستعملين غير المباشرين) للمكان باعتبار عنصر الزمن- أو المتتابعات في الفراغ- محوراً أساسياً في هذا العمل، وكلا المجالين يكونان معا رؤية إنسانية- عمرانية/ بيئية موجهة نحو الاستفادة بأساسياتهما معا في إلقاء مزيد من الضوء على دور الفراغ العمراني كمنظم للأداء العمراني البيئي في المدينة العربية التقليدية.

١. ١ الفراغات العمرانية- في المفاهيم والملامح العامة

لعل البداية المنطقية لصياغة المدخل نحو تفسير الملامح المميزة للفراغات العمرانية في المدينة العربية- باعتبارها ضمن أهم العناصر المكونة للهيكل العمراني بتشكيلاتها للهيكل العمراني- هي تلك التي تسعى إلى تناول الفراغات العمرانية كوحدات مستقلة بذاتها (منفردة ومتكررة) في مستوى, ورصدها خلال تدرجاتها (وفقا لتعدد النشاطات وتنويعات الوظائف التي تمارس داخل حيزات عمرانية محددة) في مستوى آخر, وبالنظر إليها كمجالات للتفاعل الحادث بين المكان والإنسان على ضوء العلاقات البنيوية بين مكونات الهيكل العمراني ومن خلال تعدد إمكانات اتصالاتها في مستوى ثالث. (الشكل١)

فراغ عام مفتوح على المشاع، شاطئ الخبر، السعودية.

الحدائق والمنتزهات	**وحدات مستقلة/ منفردة أو متكررة**	١- الحوش	الاستقلالية/ التفرد/التكرر
الساحات العامة	**الوحدات المشتركة/ ملكية مشتركة**	- الساحات/ الميادين	التدرج
الفراغات شبه الخاصة		- الحدائق العامة	التنظيم الفراغي
	الأسرة ملكية خاصة	٢- داخل الهيكل العمراني	
الفناء السماوي (الحوش)	**الفراغات العمرانية أنوية موجبة أو سالبة**	٣- المسكن/ المنطقة المحدودة	

(شكل١) مستويات رؤية الفراغات العمرانية في الهيكل البنائي [من إعداد الباحث]

تلعب الفراغات العمرانية دوراً فعالاً في تحديد التوجهات الأساسية لتشكيل التكوين المعبر عن ملامح الأنسجة العمرانية في المستوطنات البشرية بمقاييسها الثلاثة, الأعلى المدينة: والأوسط: المنطقة السكنية، والأدنى: المسكن/ المنشاة المفردة وهي في كل من هذه المستويات تكون نتاجاً للعلاقة بين الإنسان المستعمل والمكان، وتحت تأثير مجموعة من القوى المؤثرة على جوانب هذه العلاقات الإنسانية المكانية. (الشكل ٢)

(شكل٢) الفراغات العمرانية نتاج للتفاعل بين الإنسان والمكان وبيانه في التشكيل على ثلاثة مستويات [من إعداد الباحث]

ويتطلب ذلك التعريف بالفراغات والتعامل معها كأماكن مبنية من جهة, ومن خلال بيان النشاطات التي يمكن أن تمارس خلالها من جهة أخرى. وتقوم الدراسة الحالية على الافتراض القائل بأن مسالة الاهتمام بالفراغات العمرانية المشكلة بتوزيعاتها وعلاقاتها البنيوية (بين بعضها من ناحية وبينها وبين مواضع النشاطات الأخرى من الناحية الثانية) لا يمكن التعامل معها إلا من خلال فهمها كمواضع للتفاعل بينها وبين الإنسان على ضوء إدراكه المعرفي لملامح المكونات من حوله, ومن خلال التأثيرات الناتجة من سلوك الإنسان على البيئة وتأثير السلوك ذاته على بالبيئة من حوله (وهو ما يعرف بالتأثير والتأثير العكسي)- (انظر١/ ٢). إذ أنه إذا لم يتمكن الإنسان المتعامل مع الفراغات في أن يشكل صورا بصرية (الإدراك المرئي) وأخرى ذهنية (الإدراك العقلي) متمايزة لهذا الفراغ فان التعامل معه سيكون في أدنى درجاته, ومن ثم يفقد الحيز المكاني في الحال دوره في توفير غاياته التي وجد من أجلها (انظر٣/٢). ولعل المساهمة التي يمكن أن يقدمها مصمم البيئة الخارجية هنا تكمن في دوره في تجهيز فراغات عمرانية تتلاءم مع المتطلبات من جهة وتصيغ السلوك الأوفق من جهة أخرى.

تقترح هذه الدراسة الارتكاز على مفهوم العلاقات الحميمة كمبدأ قيمي للحكم على مدى فاعلية الاستعمال الموجه للفراغات العامة والأخرى وثيقة الصلة بأماكن المعيشة الأسرية. ويرتكز هذا المبدأ على مجموعة من القيم الإنسانية المرجو تعميق دلالاتها في المكان (الفراغ العمراني) مثل: الراحة والتآلف والترابط والجيرة وتنمية العلاقات الإنسانية وتنظيمها والمشاركة والأمن والأمان والحماية والحد من الاغتراب والعزلة المكانية والانتماء والمساواة, بالإضافة إلى القيمة التاريخية والتذكارية التي يكتسبها الفراغ من الزمن والأهمية.

ويوضح (شكل٣) تركيب هيكل نسق القيم المرتكز على القيم الإنسانية والمجردات, ثم الانتقال إلى مجال رصدها كمبدأ يرتكز على مفـــاهيم العلاقات الحميمة/ الممارسات المجتمعية, انتهاء بترجمتها في الحيز المكاني من خلال الغايات ومنها إلى بيان الدلالات على الإنسان وفي البناء.[٨][٩]

ملحوظة مهمة: تركيب هيكل نسق القيـم عبارة عن محاولة للوصول إلى بناء عمـــراني مستنداً على المبادئ العمرانية العربية. هذه المبادئ تستمد قوتها من الغايات التي لهـــا علاقة بكل من الإنسان والمكان وتظـــهر البناءات العمرانية في الأخير كتعبير عـــن مدى الاستفادة من هذه الغايات والقيم في مجموعة من الدلالات التي لها أيضاً علاقـــة بالإنسان والمكان. ولما كان هذا الـتركيب للنسق يختلف من مكان إلى مكان آخـــر, ووفقاً لاختلاف النشاطات التي تحـدث في هذه الأماكن فإن هذا المركـــب اختـــار العلاقات الاجتماعية لتكون كمبدأ يمكـــن الانطلاق منـــه لتحديـــد النشـــاطات في الفراغات وأغلبها هدفه الترفيه. ويتـــدرج هيكل المركب بداية من القيم الإنســـانية المؤثرة على النشاطات داخـــل الفـــراغ, ومنها إلى التعريف بالمبدأ المرتبـــط بهـــذه النشاطات وهو الممارسة الاجتماعيـــة, وفي هذه المرحلة تظهر الغايات التي لها علاقـــة بالإنسان والأخرى التي لها علاقة بالمكـــان، وكل منهما يساعد على اقتراح التصميـــم المتوافق مع السلوك والنشاط والمكان بينما يكون الحدث هو الترفيه، بعد ذلك يظـــهر المنتج المبني خلال عمارة السكن (كمثال) ودلالاته مرة إنسانية ومرة أخرى مكانية.

(شكل٣) تركيب هيكل نسق القيم الإنسانية للفراغات العمرانية في المدينة العربية الإسلامية [من إعداد الباحث]

١. ٢ الفراغات العمرانية- تعاريف

لعل من ابسط **تعريفات الفراغ العمراني** هي التي تنظر إليه على أنه ذلك الحيز الذي يشكل إحدى جانبي الثنائية المكونة لمواضع النشـــاطات- المباني والفراغات- الممكنة والمحتملة للاستعمالات الشائعة داخل المناطق العمرانية في المستوطنات البشرية، كل هذا في حدود أن تكون العلاقة بين المباني والحيز المكاني المتصلة به ملائمة لتحقيق شرائط أن يكون هناك فراغا عمرانيا يمكن التعرف عليه والإحساس به وإدراكه بصريـــا (مرئيـــا) وماديا، كما يمكن توصيفه على أنه ذلك المكان الذي يمكن التعرف عليه والإحساس به وإدراك ملامحه وأبعاده. ويتحدد نجاح مدى الحيز المكـــاني وإطلاقه كفراغ عمراني بالفعل من خلال إمكانات إدراك الصورة المرئية داخله ومدى وضوحها، أما المناطق المفتوحة فيمكن فهمها باعتبارهمـــا المطلق أو المجرد مقابل نسبتها إلى أشياء أخرى.[٢٣]

يمكن فهم الفراغ في صورته المطلقة كإطار موجود بصورة مستقلة عن أي شيء بداخله, ليس ذلك فحسب بل إنه إذا ما تم إزالة العنـــاصر التي بداخله فانه لا يتغير ويبقى كما هو. أما الفراغ المنسب فهو تعبير عن مجموعة من العلاقات بين الأشياء داخل هذا الفراغ ومن هذه الوجهـــة فالفراغ يتغير كلما تغيرت مواضع الأشياء بداخله أو زاوية رؤية المشاهد.[٢١]

ويشير (اشيهارا) Ashihara في مؤلفه "التصميم الخارجي في العمارة" Exterior Design in Architecture إلى إمكانات الإحساس بذلك كلـــه ومتغيراته في معرض وصفة لنوعيات الفراغات حيث يلمح إلى نوعين من الفراغات[١٥]: أولهما- الفراغ الموجب (المحدد) + ve space وهو الحـــيز المكاني المحصور بين المباني والعناصر المبنية بالموقع، والثاني- السالب (غير المحدد) - ve space وهو الحيز المكاني المحيط بهذه العنـــاصر، وكلاهمـــا الموجب والسالب/ الداخلي والخارجي يستمدان ملامحهما من العلاقة بمكونات وطبيعة المحيط العمراني الطبيعي أو الصناعي(من صنع الإنســـان) وهو الأمر الذي يؤكد على أن الفراغ ليس مكاناداخليا أو خارجيا فقط ولكن قد يكون (هذا الفراغ) أحيانا محتـــوي بشـــيء the container وأحيانا أخرى يكون هو نفسه محتويا لهذا الشيء the contained. (الشكل ٤)

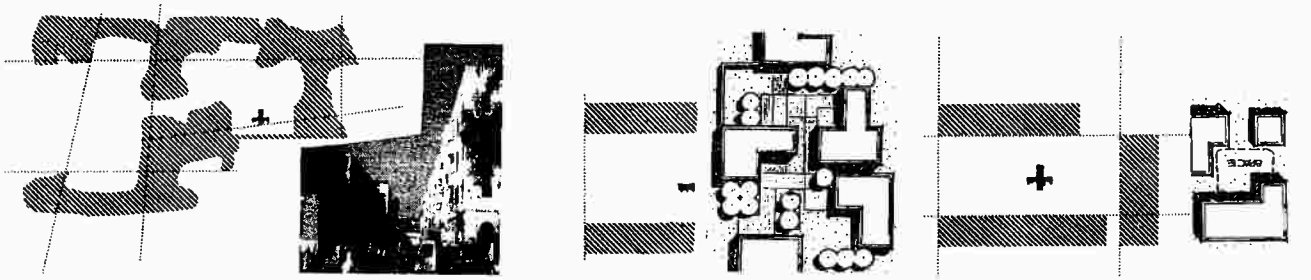

(شكل ٤) الفراغ الموجب والفراغ السالب

١. ٣ الفراغات العمرانية: النشاطات / الوظائف– الأحداث

يمكن توصيف الفراغات العمرانية وفقا لتباين النشاط الممارس داخلها باعتبارها فراغات وظيفية من جهة, وعلى ضوء النظر إليها من خلال فهم العلاقة بين الإنسان والفراغ, والإنسان والإنسان, مكونة الفراغ الحميم من جهة أخر، وعلى ضوء التغير الزمني مكونة الفراغات التذكارية من جهة ثالثة. ويتناول هذا القسم بيان بعض أنواع الفراغات العمرانية بالارتكاز على فكرة ترجمة الإحساس الإنساني بالفراغ إلى إدراك مادي ذي علاقات بنيوية ارتكازا على الفهم الواعي لمتطلبات الأحداث والنشاطات التي تمارس خلالها, وبيان الدلالات المرئية وفقا لاعتبارات القيم شائعة.[٣][١٧][٢٤]

يعرف **الفراغ الوظيفي**: the functional urban space بأنه ذلك الحيز المحدد في المنطقة السكنية المحددة والذي تمارس خلاله نشاطات متباينة وفقا لنوعية هذا الفراغ وعلى ضوء علاته مع المباني والطبيعة من حوله وتتفاعل خلاله كل أنماط النشاطات الإنسانية، وتتميز هذه الفراغات بالديناميكية والحركة. وتعد المناطق المفتوحة والخضراء إحدى أشكال الفراغات العمرانية الوظيفية باعتبارها نتاجا لتوزيع مجموعة من المباني في حيز عمراني محدد، وهي هنا ليست مجرد فراغات طارئة ناتجة عن تقسيم الأراضي أو توزيع مجموعات من المباني ولكنها ضرورة وظيفية تتكامل مع استخدامات ونشاطات المناطق السكنية، وتعد أهم وظائفها: الزراعة والبستنة، والمعيشة الخارجية للأسر, ولعب الأطفال, والجلوس والتفاعل الاجتماعي/ النشاطات الهادئة, النشاطات الثقافية والترويحية, الألعاب التي يمارسها الشباب[٤]، ومن أشكالها الحدائق العامة والخاصة. (الشكل ٥)

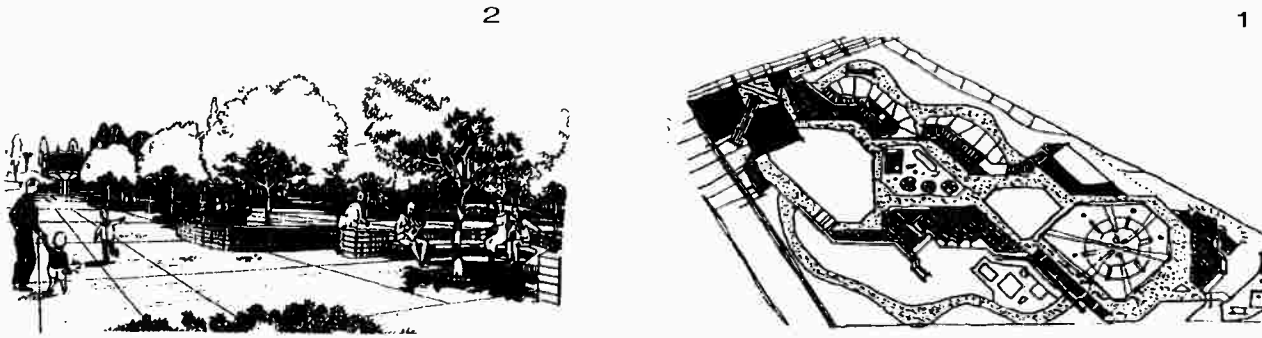

١– الحدائق العامة: حيث يمكن رؤية الحديقة بكاملها كمكان لممارسة النشاطات العامة. حديقة الغرفة التجارية، بالرياض، السعودية.

٢– جزء من أماكن لعب الأطفال في إحدى الحدائق العامة.

(شكل ٥) الفراغ العمراني الوظيفي– الحدائق العامة والخاصة

بينما **الفراغ الحميم** the intinate space هو ذو الأهمية الإنسانية في المناطق السكنية، والتي من الضروري أن تدرس ملامحها وخصائصها بعمق بقصد تحقيق أعلي كفاءة لها ثم للمنطقة السكنية ككل. والفراغ الحميم هو الحيز المكاني الفراغي الذي تمارس خلاله نشاطات محددة ومعروفة بين مجموعة من الناس يميزهم رباط واحد ومحدد. فعلى سبيل المثال, في المجموعة السكنية التي تلتف حول فراغ مخصص لاستعمال مجموعة للناس متقاربة ومتفاهمة ولديها انتماء حقيقيا للمكان يتكون ذلك الفراغ الحميم. وأيضا في المناطق التجارية تتولد هذه الفراغات لتخدم مجموعة من التجار الذين بينهم رابطة أو مصالح معينة فيتكون لديهم بين المحال التجارية الفراغ الحميم. قد يتناسب تواجد الفراغ الحميم كثيرا مع سلوك الأطفال الذين يرغبون في اللعب معا ولديهم نفس اللغة المشتركة من حيث السلوك والأداء, وهذا المقياس المحدد من الفراغ يتناسب مع مقياسهم الإنساني فيشعرون بالحنين الدائم إليه[١١]. (الشكل٦)

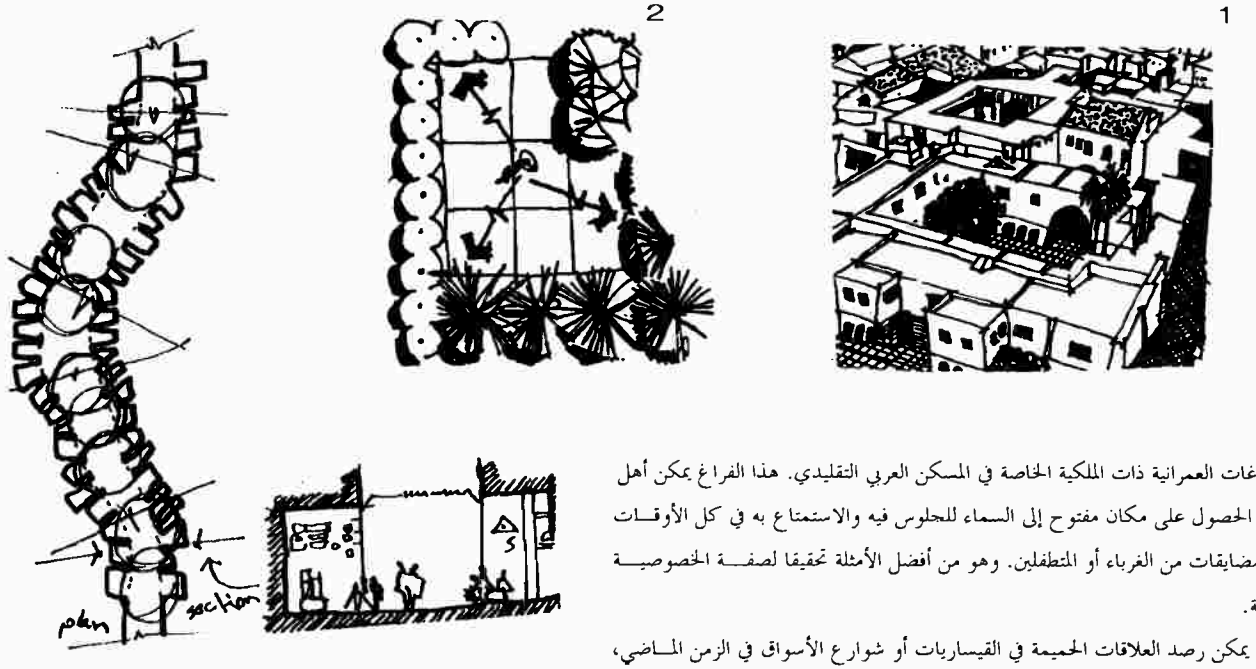

١- الفراغات العمرانية ذات الملكية الخاصة في المسكن العربي التقليدي. هذا الفراغ يمكن أهل الدار من الحصول على مكان مفتوح إلى السماء للجلوس فيه والاستمتاع به في كل الأوقات دون ما مضايقات من الغرباء أو المتطفلين. وهو من أفضل الأمثلة تحقيقا لصفة الخصوصية والحميمية.

٢- كما يمكن رصد العلاقات الحميمة في القيساريات أو شوارع الأسواق في الزمن الماضي، حيث تفتح المحال التجارية على فراغ وحيد تمارس فيه نشاطات البيع والشراء وتتم خلاله العلاقات الحميمة بين التجار أنفسهم أو بين التجار والمستعملين للمكان.

(شكل ٦) الفراغات العمرانية الحميمة في مناطق السكن والمناطق التجارية

أما **الفراغ التذكاري** the monumental space فهو ذلك الفراغ المخصص مسبقا لإظهار قيمة تذكارية تاريخية قد تتعلق بالمصلحة العامة وغير مقصورة على أفراد بعينهم، أو قضية عامة، أو وجود عام مثل الميادين العامة وثيقة الارتباط بحدث تاريخي مميز كميدان قصر الحكم بالرياض- السعودية ويتم فيه حكم القصاص. وقد يكون الفراغ ذي المقياس الإنساني الفائق the super human scale أحد أشكال الفراغات التذكارية ويعرف بأنه الفراغ المخصص لنشاط إنساني متميز ويعبر عن قيمة محددة وماذال يؤدي الغرض الذي أنشأ من اجله (بمعنى أنه ليس تاريخيا فاقدا لقيمته الوظيفية بمرور الزمن). هذا الفراغ مخصص ليسع جموع بشرية كبيرة (بعنى أنه غير مخصصا لفرد واحد) حيث يفقد هناك الفرد قدرته على التلاؤم مع الفراغ إذ لا يشعر الإنسان بمقياسه إلا في خلال مجموعات، والحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة واحد من أمثلة هذا الفراغ, وأيضا هناك فراغ الساحة أما المسا جد الكبرى. (الشكل ٧)

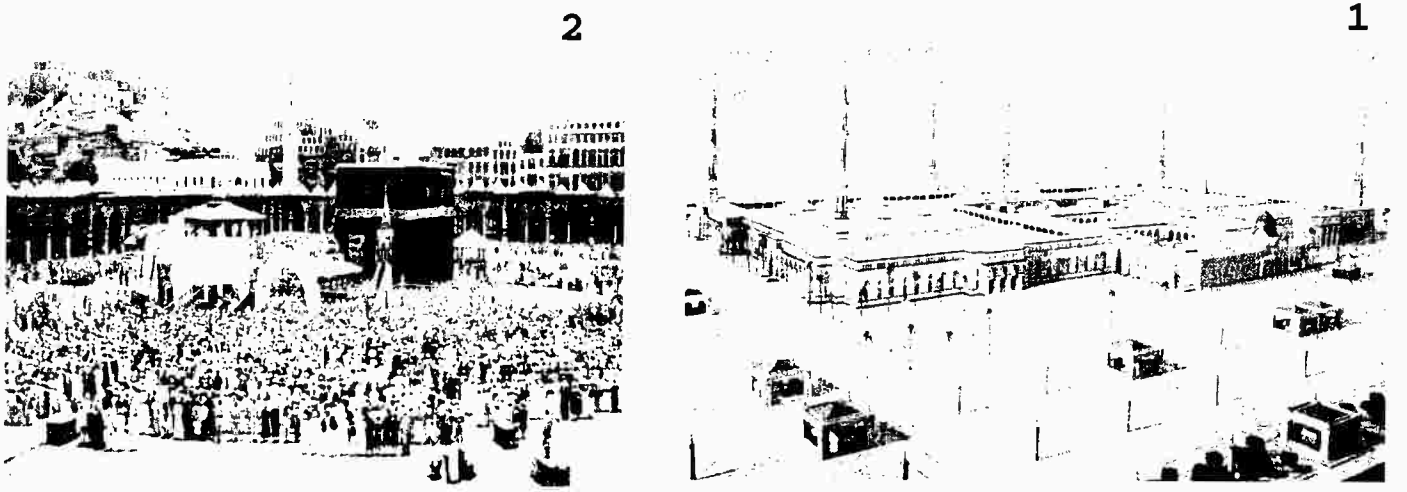

- يمكن مشاهدة المقياس العمراني الفائق في: ١- الساحات العمرانية المحيطة بالحرم النبوي الشريف، السعودية.٢- الفراغ المحيط بالكعبة المشرفة، مكة المكرمة، السعودية.

(الشكل ٧) الفراغ التذكاري وذي مقياس الفائق [من مشاهدات الباحث]

ومن وجهة النظر التي يقدمها هذا العمل يمكن تحديد الأحداث والنشاطات الفعلية في الفراغات العمرانية وفقا لرؤية ترتكز على القيم على النحو الآتي: فهي أحيانا تستهدف تحقيق غايات محددة تعبر بصدق عن قيمة إنسانية شائعة كالراحة باعتبارها قيمة عليا وكمفهوم وظيفي في آن واحد حيث تترجم عناصر الفراغ من هذا المنظور غايات الاستمتاع النفسي والروحي والعضوي البدني إلى نتاجات بنائية مادية تلبي تلك الغايات على ضوء مفاهيم المقياس الإنساني بمعدلات الأداء وغيرها. بينما يلبي الفراغ الحميم في أحيان أخرى قيمة مكانة المرأة وحق الطفل وتعظيم أمور

الجيرة والتآلف بين الناس والحد من الاغتراب ومعياره الخصوصية كأداة. كما يعكس قيمة الأمن والآمان للمستعملين وخاصة الأطفال حيث يلعبون بعيدا عن التعرض لأخطار الطرقات أو الغرباء. وفي نفس الإطار القيمي وعلى مستوى أعم يوفر الفراغ التذكاري قيمة التعرف على أحداث الماضي المتصلة بهذا الفراغ، أذن فالحدث هنا بالفعل هو تعبير عن قيمة, وكلما كان التعبير في النتاج واضحا كلما تأكد نجاحه.[٨][٩]

١. ٤ العوامل المؤثرة على نوعية الأداء السلوك الإنساني في الفراغات الخارجية

يعرف السلوك الإنساني في الفراغات العمرانية على أنه نتيجة للتفاعل المركب بين مكونات مجموعتين أساسيتين هما: ١- الحالة الباطنية والكامنة للفرد ذاته والآخرين المشاركين له في نفس الفراغ فيما يعرف بالبيئة الاجتماعية، وتناقش المسائل الجسدية (ميكانيزم عضوي) والعقلية والنفسية للفرد الناتجة عن الخلفية الثقافية والدوافع, بالإضافة إلى كل انعكاسات خبراته الشخصية واحتياجاته الإنسانية . ٢- البيئة المحيطة(أي المنظور النفعي الوظيفي والجمالي) من الجهة الثانية. إذن فالسلوك behavior هو النتاج الطبيعي للتأثير المتبادل بين الإنسان بقدراته وإمكاناته العضوية والنفسية والعقلية والثقافية وتجاربه الشخصية من جهة والبيئة العمرانية الطبيعية والمشيدة (من صنع الإنسان) بكل مكوناتها من جهة أخرى. وكلما كان التفاعل حقيقيا بينهما كلما كان السلوك معبرا عن طبيعة الحيز المكاني المحيط بها، ويمكن الحكم على سلوك الإنسان من خلال دراسة البيئة التي يحيا فيها (أو نشأ عندها) وبمعرفة الزمن الذي قضاه هناك [٧]. (الشكل٨)

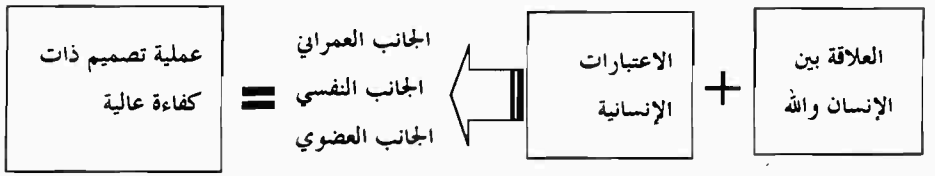

- عند التعامل مع عملية التصميم يجب العناية بثلاثة جوانب من الاعتبارات الإنسانية هي العمرانية والنفسية والعضوية، بالإضافة إلى جانب مهم هو العلاقة بين الإنسان و(الله) سبحانه وتعالى.[من إعداد الباحث]

(شكل ٨) بعض الاعتبارات التي يجب مراعاتها عند تصميم الفراغ العمراني [من إعداد الباحث]

مع ضرورة الإشارة إلى أن الحكم على السلوك الإنساني لم يعد موضوع اجتهادات شخصية أو أحكام غير موضوعية نتيجة لتصورات واعتقادات لا تستند على أساليب وأسس، كما باتت دراسات العلاقة بين السلوك الإنساني والبيئة موضوعات بحثية وعلمية مطلوبة.[١٩]

على هذا النحو يجب على المصمم الذي يتعامل مع المجال العمراني من المنظور البيئي أن يكون على دراية بثلاثة جوانب تشكل أهمية في التعامل مع الفراغ وتحديد كفاءة أدائه، هذه الجوانب هي: ١- الهيكل البنائي الفراغي. ٢- إمكانات الفرد لإدراك الفراغ والبيئة من حوله. ٣- الإلمام بردود الفعل السلوكية الناتجة عن التفاعل بين الفرد والفراغ من الناحيتين الاجتماعية- الثقافية والعمرانية.[٢٢]

وفي إطار الترجمة النوعية لكل (أو بعض) القيم الإنسانية المرتبطة بسلوك الإنسان في الفراغات العمرانية، وانعكاس هذه الترجمة لسلوكه في النتاج المدرك بصرياً وذهنياً (من خلال التعرف على الأحداث والنشاطات التي تمارس في هذه الحيزات المكانية) تدعو الضرورة هنا إلى الإشارة لبعض العوامل المؤثرة على كل من نوعية الفراغ وأدائه. والمقصود بالنوعية هنا أنها الإسقاط السلوكي والمادي لكل ما يحدث في الفراغ وما يعبر عنه في علاقته مع الإنسان والمحيط الحيوي المباشر. أما المقصود بالأداء فهو "مقدار تلبية عناصر البيئة الطبيعية (أو المشيدة) التي من صنع الإنسان للمتطلبات الإنسانية وفقاً لمعايير أو معدلات أمكن الوصول إليها نتيجة لدراسات تحليلية ومنهجية مستمرة ومدققة، وأطلقت هذه المعايير كمقاييس وأسس تصميم وتخطيط تمكن من فهم ملاءمة الفراغ لشاغليه."[٢٢]

أما العوامل المؤثرة على نوعية الأداء فهي [٣][١٦][١٨][١٩]:

– **العوامل ذات العناية بالجانب العملي كالوظيفة** function **أو النشاط** activity: حيث تحدد نوعية الفراغ على ضوء النشاط الذي يمارس داخل هذا الفراغ، فالنشاط الترفيهي شائع في الحدائق العامة حيث الترفيه هو وظيفتها الأساسية، وهناك نشاط المصلين في الفراغ المخصص للتجمع في حرم المساجد، أو المخصص لنشاط الطلاب والدارسين في فراغات الجامعة، أو لتجمع أفراد الأسرة أمام المسكن الخاص بهم. ومدى ملاءمة نوعية الفراغ للنشاط تعكس مستوى الأداء، كما تتعلق نوعية الفراغ بمدى تبعية الحيز المكاني للمباني أو المنشآت المحيطة به. (الشكل ٩)

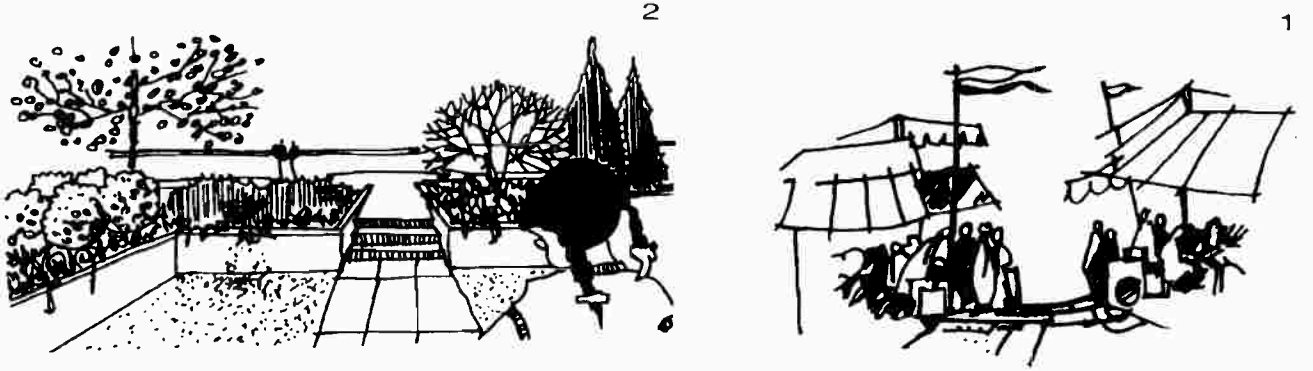

١– فراغ السوق في الشارع العام. ٢– فراغ في ملاعب الأطفال

(شكل ٩) اختلاف نوع الفراغ وفقاً لطبيعة النشاط الممارس في الفراغ

- **تتدرج تبعية وخصوصية الفراغ** ownership بين أربعة أنواع وفقا لشكل الملكية: أ- ملكية عامة public مثل: الحدائق العامة كحدائق المدينة أو الحي السكني أو المجاورة السكنية أو المجموعات السكنية، أو الفراغ المفتوح أمام مساجد المدن وهي ملكية على المشاع لكل المستعملين في المكان، ويقوم بتوفير التمويل اللازم لها وتنفيذها وأعمال الصيانة بها الجهات الحكومية، ب- ملكية شبه (أو نصف) عامة semipublic وج- ملكية شبه (أو نصف) خاصة semiprivate وكلاهما يمثل المناطق المفتوحة المحددة عمرانياً لمجموعة من المستعملين لها علاقة بالمكان بحث ترتبط بوحدة أو اكثر بصرياً أو مكانياً, وهو الأمر الذي يحدد استعمالها ويجعلها وقفاً على مجموعة من الناس ومن أمثلتها الساحات الخارجية لعمران محدد مثل: مباني الوكالات في المدينة القديمة. (الشكل ١٠)

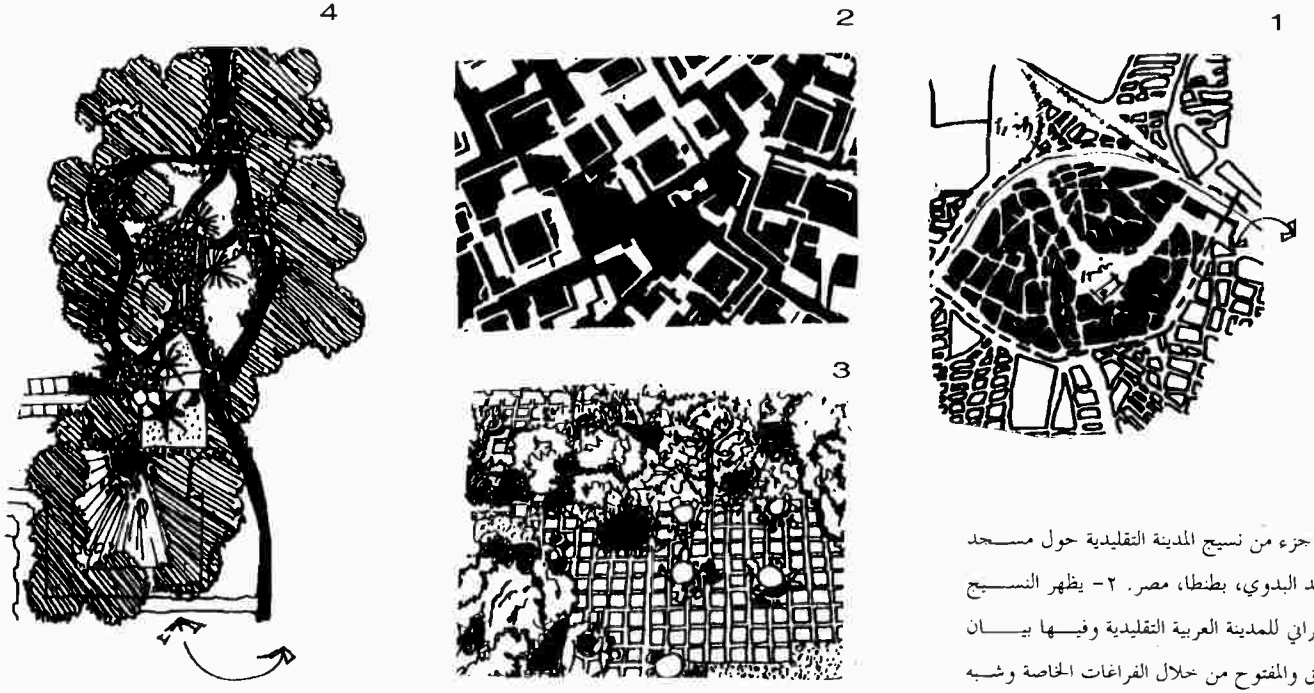

١- جزء من نسيج المدينة التقليدية حول مسجد السيد البدوي، بطنطا، مصر. ٢- يظهر النسيج العمراني للمدينة العربية التقليدية وفيها بيان المغلق والمفتوح من خلال الفراغات الخاصة وشبه العامة والعامة. ٣- الفراغ الخاص في واحدة من أمكنة الجلوس في حديقة عامة. ٤- تشكيل النباتات لفراغ عام في حديقة.

(شكل ١٠) الفراغات العامة وشبه العامة وشبه الخاصة في المدينة العربية

هذه الفراغات أيضاً يمكن أن تتواجد على مستوى المجموعات السكنية الصغيرة clusters في نسيج المدينة التقليدية حيث تصبح الملكية الخاصة بالمباني المخصصة لسكن هذه المجموعة مثل: مسارات الحركة المشتركة والفراغ الذي يتوسط مجموعة من المباني. (الشكل ١١)

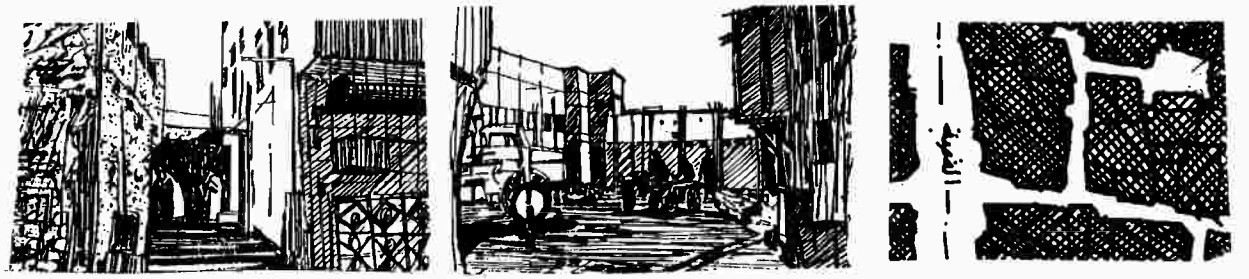

(شكل ١١) بعض أشكال الفراغات ذات الملكية الخاصة في نسيج المدينة العربية التقليدية [من مشاهدات الباحث]

- **الحواف والحدود** edges: وهي تمثل جوانب البناء المشكلة للملامح الخارجية للحيزات الفراغية التي تتحكم في تحديد نوعية الفراغ من ناحية العزلة. فهناك الفراغات المعزولة ذات الحرم island, والفراغات المفتوحة ذات الحرم, والفراغات المتصلة connected, والمطل looking, ومتعددة المستويات multilevel, والمسقوفة roofed. كما تتباين العناصر المشكلة لحدود وحواف الفراغ العام أو الخاص فمنها الأشجار الطبيعية nature trees أو كتل الأشجار tree mass أو الشجيرات shrubs أو الحوائط walls، وكذلك شكل سطح الأرض ground from والمستويات levels والمداخل access / entrances. كل هذه العوامل تتحكم في معدلات الأداء من منظور توفير الأماكن الإنسانية المكانية المختلفة والمحققة للاعتبارات البيئية الأخرى. (الشكل ١٢)

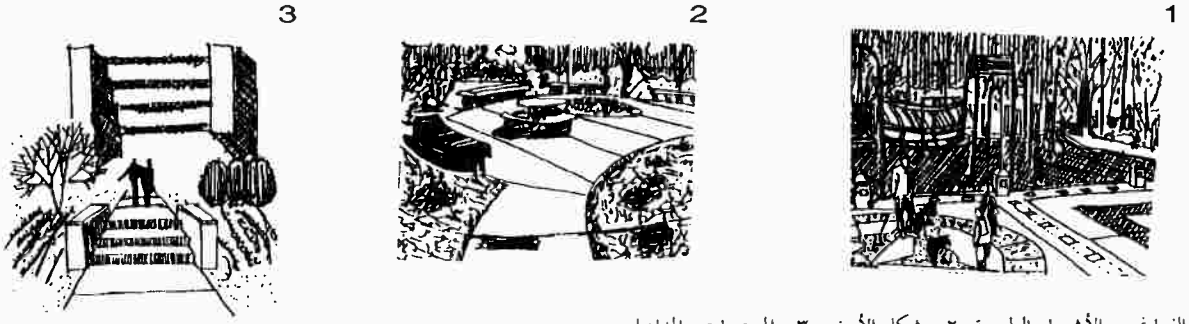

١- حدود الفراغ من الأشجار الطبيعية، ٢- شكل الأرض، ٣- المستويات والمداخل.

(شكل ١٢) بعض أشكال حدود الفراغات العمرانية [من مشاهدات الباحث]

– **نظام الحركة والاتصال** circulation syste والمقصود بها المنهج أو الأسلوب الذي يحدد الفرق بين حرم المناطق الخاصة عن العامة، كما يساهم في بيان مدى أداء الفراغ لتحقيق درجة الخصوصية المطلوبة، وهذا النظام له علاقة بالعوامل المؤثرة على الأداء مثل أماكن وصول وسائل الحركة إلى مواقف السيارات بسهولة حول فراغ تجمع المجموعات السكنية أو إلى أماكن الوصول للمسكن مباشر, أو إلى موضع النشاطات الأخرى المختلفة داخل المناطق السكنية. (الشكل ١٣)

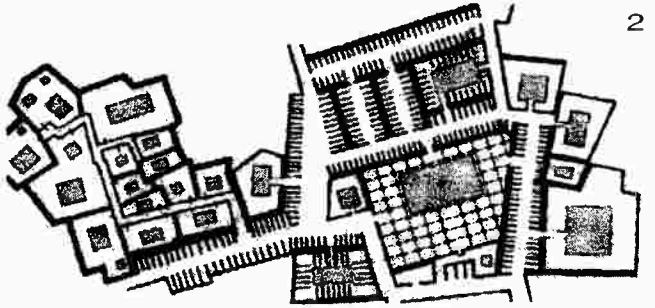

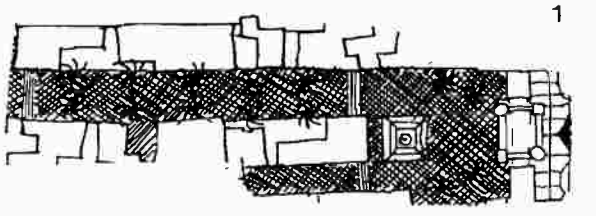

١- مسار حركة المشاة.

٢- مسارات الحركة الفرعية أو الثانوية في تجمع عمراني سكني تجاري.

(شكل ١٣) أشكال أنظمة الحركة والاتصال

– **مواد نهو أسطح الأرضيات والتشطيبات والمعالجات الاصطناعية** surfaces finishing materials treatments وكلها تؤثر على نوعية الفراغ وأدائه، فهي إما مواد صلبة أو مائية أو نباتية، ويرفع نوع هذه المعالجات من كفاءة الاستعمال للفراغ حيث يتأثر السلوك الفردي والتفاعل الاجتماعي داخل الفراغ بشكل فعال بالموجودات المادية داخل الفراغ من ناحية الشكل أو السلوك أو التنظيم [١٩]. (الشكل ١٤)

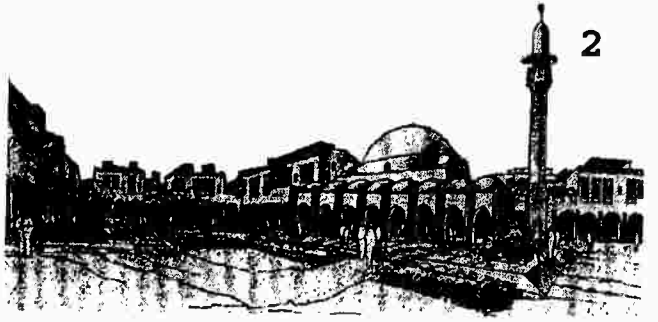

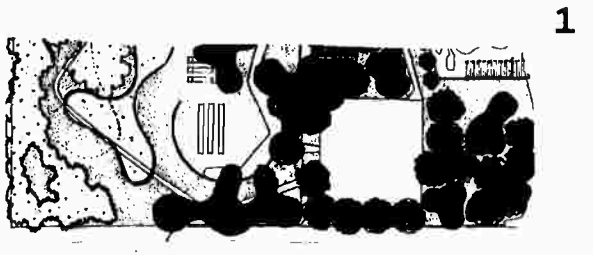

١- منطقة خضراء مفتوحة مخصصة للجلوس.

٢- مواد نهو الأرؤضيات الصلبة مع بعض النباتات في ساحة المدينة المركزية.

(شكل ١٤) مواد نهو الأرضيات والمعالجات الاصطناعية

٢. الإدراك الإنساني للفراغات العمرانية

تعد عملية الإدراك مرحلة أكثر تعقيداً من مجرد نقل الصور الموجودة في العالم الخارجي عن طريق العين (كجهاز بصري/ حسي) إلى العقل البشري، فهي المرحلة المتقدمة من الإحساس بالموجودات في البيئة والتي يعمل فيها العقل كأساس يساعد على فهم البيئة من خلال صور ذات مدلولات ومعان محددة. ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن عملية تحول الأشياء المادية المرئية من مجرد صور لمرئيات إلى مدركات يستطيع الإنسان أن يفهمها كمعان تماثل عملية تكون الخبرات الإنسانية خلال التراكم المعرفي للمعلومات المفردة والبسيطة إلى كل مركب ومعقد- وفقاً لزمن التجربة والخبرة- ومقدار التفاعل مع البيئة المحيطة.[١٠][١٢][١٥]

وغالبا ما تكون هذه الخبرات نتاجاً مباشراً للتفاعل بين النبضات الحسية القادمة من الموجودات في البيئة المحيطة، وعلى وجه الخصوص, من الأشياء المفضلة عند الفرد, ووفقاً لحالته المزاجية والعقلية, وكلاهما يؤثران على عمليات تنظيمه للأمور, وشرحها, وإبرازها للمعاني والنتائج التي يفهمها خلال عملية الإدراك[١٢]. وفي الأعم الأغلب تكون التأثيرات الناتجة من الاستجابة العقلية للبيئة بشكل عام أقل تأثيراً من تلك الناتجة عن الموجودات المحددة والمؤثرة في البيئات التي تحمل أشياء تدرك بالحواس, وتتضمن الدوافع الحسية للسلوك [١٩]:

- إن عمليات توصيف واختيار المعاني والرموز المنتقاة عن البيئة- في موضوع الإدراك- عادة ما تعود إلى طبيعة الفرد ذاته وتختلف من فرد إلى فرد آخر، وعلى ضوء العلاقة بين عمليات الإدراك والسلوك بكل تعقيداتهما وعدم تشابههما يمكن الوصول إلى قوانين عامة ذات دلالات قد تكون إحداهما دلالة بيئية.

- أما عن ماهيات الأشياء التي يرغب الفرد أن يراها في البيئة الخارجية كالمناظر واتجاهات الرؤية الجميلة نسبياً ومحددات الانطباعات البصرية- أو يرغب في ألا يراها كالمناظر غير المرغوبة والأماكن الموحشة- على الرغم من التحديد المسبق للأنساق والمبادئ العامة- فإنه يمكن استنتاجها عن طريق المقارنة بين الموجودات الطبيعية في البيئة، وطريقة اختيار الفنانين لبعض منهما كأعمال جمالية وتصويرها من وجهة نظرهم. كما تلعب خبرة المصمم هنا دوراً هاماً في تحديد الإدراكات المقبولة أو المرغوبة والتي يتمنى الفرد أن توجد لتعمل من بيئته مكاناً ملائماً له.

١ العوامل الإنسانية الحاكمة لقدرة الإنسان على إدراك الفراغ: المسافة والرؤية والحركة

يسعى هذا القسم في مجمله إلى تحديد ملامح الارتباط المباشر بين الإنسان والمكان من خلال بحث إمكانات تسجيل جوانب الإدراك الإنساني للفراغ (المعايير/ المحددات), وتنظيم عناصره, وتفسير العلاقات بينهما على ضوء ثبات (أو تغير) القيم الإنسانية بوجه عام (بين الماضي والحاضر), ومحاولة رصد انعكاسات ذلك كله في النتاج البنائي. وفي الأعم الأغلب تكون معايير تحديد نوعية الفراغ تابعة لقدرة الإنسان على

الإدراك الحسي- عن طريق الرؤية- ومنه إلى التصور العقلي للفراغ على ضوء ثلاثة عوامل: المسافة (أو منطق القرب والبعد), وطريقة الرؤية (زوايا النظر)، والحركة (من خلال مفهوم الزمن كبعد رابع) [٢][١٩][٢٠]:

- تؤثر **المسافة** بين الفرد المشاهد ومكونات الفراغ العمراني (الثابتة/ المتحركة) على الإحساس بنوعية الفراغ، فعلى سبيل المثال إذا كانت المسافة بينهما متقاربة جداً فإن الإحساس بالارتباط بين الشخص والفراغ يكون في قمته ، حيث يمكن للمشاهد في هذه الحالة أن يركن إلى قدرته العضوية/ الفسيولوجية على الملاحظة الدقيقة من خلال المشاهد بالعين المجردة لكل ما حوله ليتمكن من التلاؤم والتعايش مع ما حوله في الفراغ، أما إذا كان المشاهد يتحرك داخل الفراغ على مسافات تجعله أكثر تباعداً بينه وبين الموجودات في الفراغ فإنه لا زال في الحدود التي تجعله يحتفظ بصفة الاتصال الحميم بهذه الموجودات، والمهم هنا هو أنه قادراً على إدراك الفروق بين الألوان والتعبيرات الدقيقة، كما يمكن أيضاً إجراء الحوار مع الأشخاص الموجودين معه في الفراغ، وعندما يتحرك المشاهد على مسافات أكبر بينه وبين مكونات الفراغ- بمعنى تباعد محددات الحيز الفراغي على مسافات أكبر- فإنه يفقد بعض قدرته على التمييز لشكل الفراغ, ومتغيرات عناصره وتعبيراتها الظاهرية وتفاصيلها المختلفة. وهكذا كلما ازداد الفراغ اتساعاً تصبح إمكانيات التعرف على التفاصيل داخل الفراغ كالألوان مثلاً ممكنة ولكن هنا تكون بدايات فقدان القدرة على تحديد النوايا والسلوكيات أو التفاصيل الدقيقة للأفراد الآخرين الموجودين داخل الفراغ، أما في الفراغات الكبيرة, فإنه يمكن فقط التعرف على الحركات الواضحة دون تحديد للتفاصيل.(الشكل ١٥)

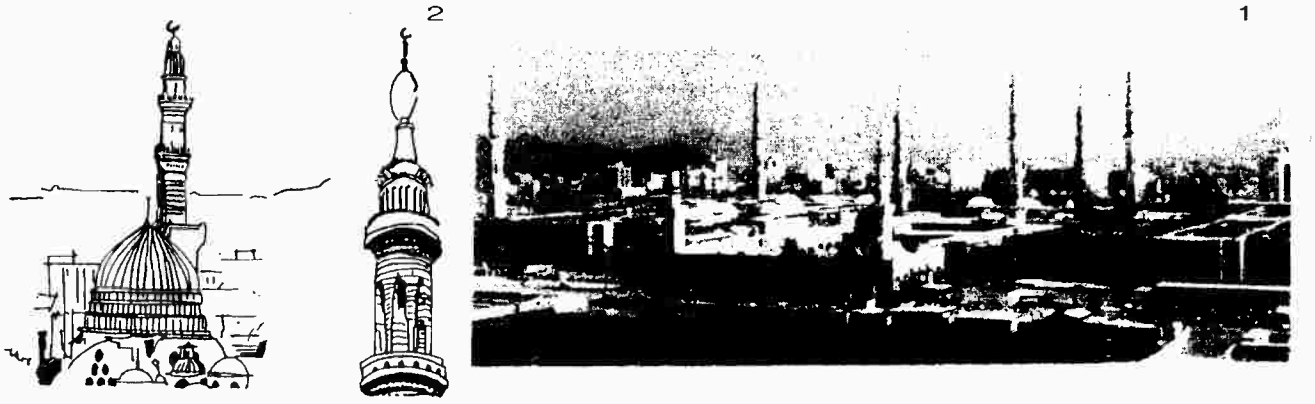

١- مآذن المسجد النبوي الشريف من مسافة بعيدة، ٢- مآذن المسجد من مسافة قريبة.

(شكل ١٥) تأثير المسافة على الإدراك

- **أما عن الرؤية** vision فهي غالباً ما تكون انعكاساً مباشراً لطبيعة الإنسان وقدرته العضوية على استعمال العين. ويعد موضوع التعرف على كيفية عمل العين (أو الأبصار) وانتقال الصورة من العالم الخارجي إلى الشبكية وانتقالها المباشر إلى مراكز الأبصار في المخ- وما يحدث من خداعات في الصورة المرئية- من الأمور الهامة لكل من المصمم المعماري والعمراني وكل المعنيين بتشكيل البيئة الخارجية والتعامل معها بقصد تلافي أي حالات للتشويش المرئي التي يمكن أن تحدثها الطبيعة الكونية للعين، فبشكل عام ينحصر مجال رؤية الإنسان الطبيعي في الشكل المخروطي الذي ينحصر ضمن زوايا رؤية مقدارها ٣٠و ٤٥ و٦٥ درجة، ويوفر هذا المجال الطبيعي إمكانية لرصد الأشكال ذات الانحناءات بشكل أكثر راحة عن الأشكال الحادة [٣]. (الشكل ١٦)

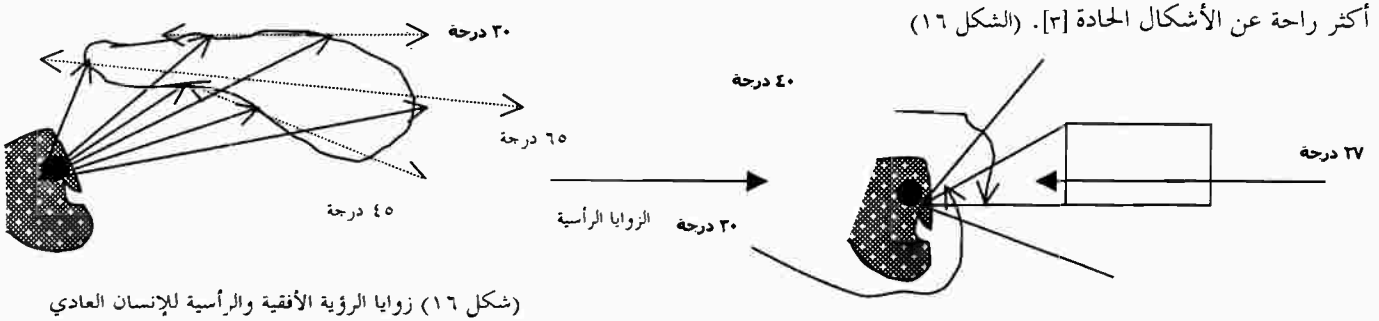

(شكل ١٦) زوايا الرؤية الأفقية والرأسية للإنسان العادي

وهو الأمر الذي يساعد على توفير وسائل أكثر حرية لتشكيل الفراغ والتحكم في نوعيته، وهنا يمكن القول أن المعماري البيئي مسؤول عن دراسة زوايا الرؤية المرغوبة عند الإنسان وتحقيقها في البيئة العمرانية المحيطة سواءً في الحدود المبنية ككتل المباني أو الأشجار أو الأسوار أو حتى في العلاقة بين الكتل والفراغات. وعادة ما تكون الخطوط الأفقية التي في مستوى النظر أكثر ملاءمة لقدرة العين على إدراكها عنها من الخطوط الراسية التي تتطلب من الإنسان جهداً في تحريك رأسه لأعلى. ومن الأمثلة الشهيرة على نقل الإحساس الحقيقي بمجال الرؤية يكون عند المرور بالسيارة عبر أعمدة الكباري العلوية والتي عندها يبدأ السائقون في خفض سرعتهم تدريجياً عندما يكونون بعيدين نسبياً عن المكان وذلك لتلافي قصور قدرة العين على تحديد المسافة الفعلية بين الدعامات أسفل الكباري. (الشكل ١٧)

(شكل ١٧) خداع النظر أسفل الكباري [من مشاهدات الباحث: مدينة الرياض]

– **تعد الحركة** movement داخل الفراغ العمراني من العوامل المؤثرة على اختلاف إمكانات الرؤية في الفراغ وسهولة إدراكه، فالمشاهد الذي يتحرك على الأقدام ببطء يحتاج لفراغ يختلف في تكوينه وطبيعته عن الفراغ المخصص للحركة السريعة. ومن هنا يأتي الاختلاف المطلوب لعناصر تشكيل الفراغات المخصصة لأداء وظائف مختلفة، فعلى سبيل المثال، تختلف نوعيات الأشجار المستعملة حول طريق مرور آلي سريع أو التي لهـــا اتصال بمسارات الحركة علي الأقدام، أو ذات العلاقة بالفراغات المطلة على الماء والحركة فيها بطيئة أوسريعة [١٦][١٩]. (الشكل ١٨)

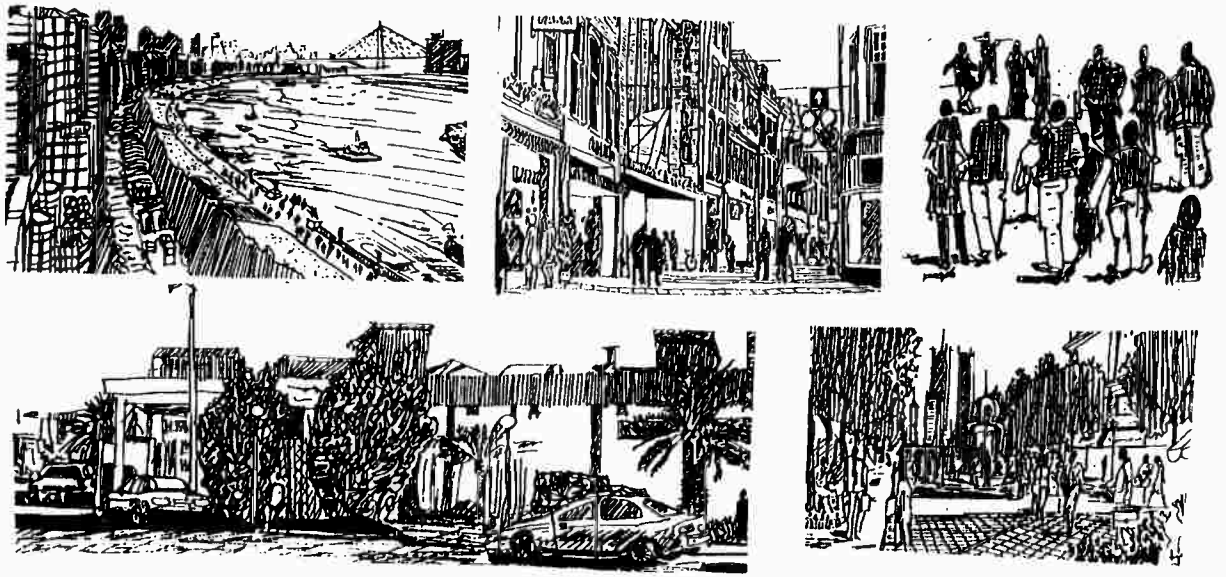

(شكل ١٨) أشكال الحركة على طرق المشاة والسيارات

٢ المحددات العمرانية لقدرة الإنسان على إدراك الفراغ

يعرض هذا المبحث لبعض المحددات العمرانية المؤثرة علي إدراك الفراغ بقصد الاستعانة بها كأدوات تصميم وتقييم، وتعتمد هذه المحـــددات على معطيات الفراغ نفسه من جهة والمحيط الحيوي context من جهة أخرى، ويمكن حصر هذه لمحددات في [١٨]: الشـــكل والتشـــكيل shape and formation، التوجيه orientation، الاحتواء contained، التدرج spatial hierarchy، المداخل والمخارج و المســـرات والمماشـــي والمعـــابر gateway & paths & crossing platform، المصاطب ، الحدائق، القوى الطبيعية gardens & natural forces.

ويستهدف العرض التالي إلقاء بعض الضوء علي ملامح هذه المحددات وبيان تأثيراتها على تغير الإحساس المرئي بالفراغ تمهيدا لإدراكه، ومن ثم تطوير إمكانات تعديله أو تصويبه ليتلاءم مع متطلبات الإحساس الإنساني بالفراغات حوله أو التي يعيش خلالها وعلى ضوء احتياجاته الجسدية والنفسية والاجتماعية:

- فأحيانا قد يختلف **الشكل** الذي يكون عليه الفراغ فهو أما فراغا طوليا أو دائريا أو مربعا أو ذو شكلا عشوائيا غير محددا، وأحيانا تتداخل الأشكال فيحدث خلط بين الاستعمال الدائري والطولي / الخطي. وبوجه عام يؤثر شكل الفراغ على قدرة الإنسان علي الإحساس به بصريا. وكلما كان الفراغ يميل إلى الخطوط الهندسية المريحة والمستمدة من تجربة المشاهدة للإنسان والتي اعتاد عليها من خلال الترجمة العقلية لها كلما كان إدراك الفراغ أسهل وأسرع. (الشكل ١٩)

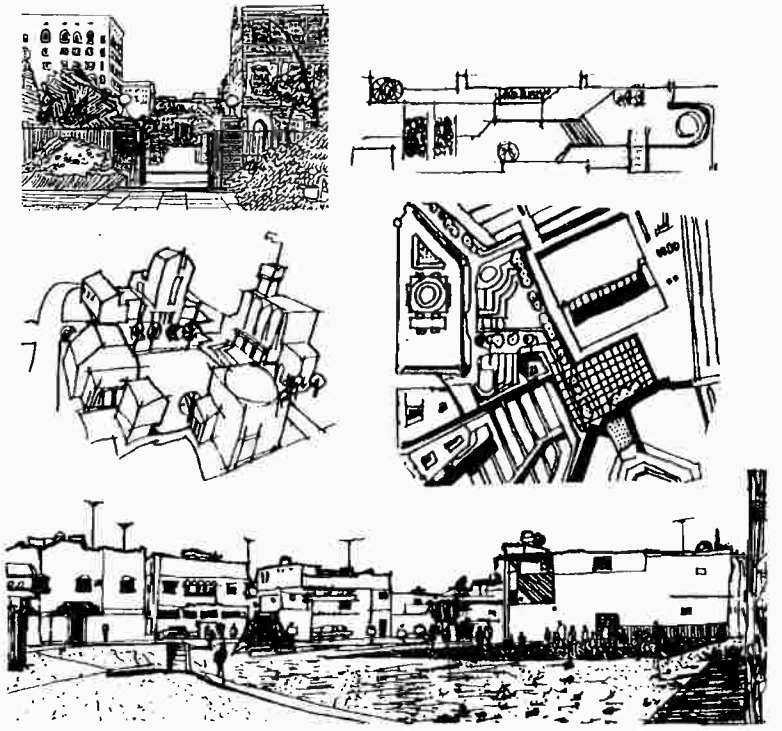

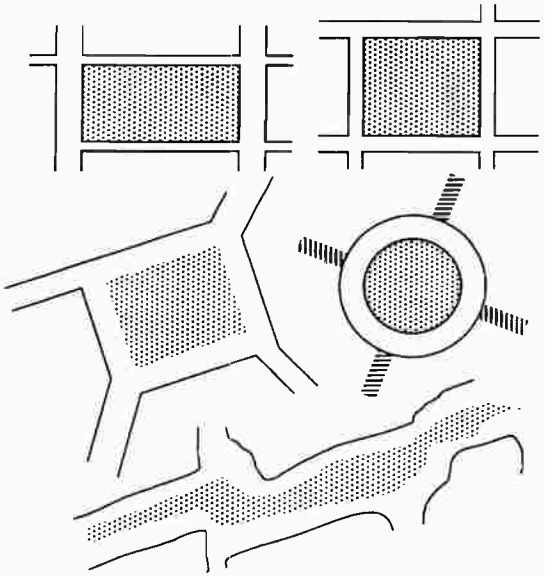

- تتباين أشكال الفراغات العمرانية في المدينة العربية التقليدية والمعاصرة، فهي أحيانا فراغات عمرانية مربعة أو طولية، وأحيانا أخرى هي فراغات ذات أشكال مختلفة. هذا الشكل الفراغي يمليه جوانب الفراغ ذاته أو المسارات الموصلة للفراغ من جهة ثانية.

(شكل ١٩) شكل الفراغ [من إعداد الباحث بتصرف]

– على مستوى **التشكيل الفراغي** للنسيج الحضري العمراني بشكل عام يمكن الإحساس بالدلالات المرئية للفراغات من خلال تتبع علاقاتها البنيوية ببعضها البعض, ويكون السبيل لرصد ذلك من خلال الشبكة المكونة من الطرق ومسارات الحركة المتصلة بها والتي تعمل كسلسلة من الوصلات الفراغية، مع ملاحظة استقلالية كل فراغ من ناحية تبعيته لنمط الوظيفة التي تمارس خلاله. وعلي هذا النحو يمكن رؤية النسيج العمراني وإدراكه بصريا بالاستعانة بهذه المحددات المادية على أنه سلسلة متصلة من الفراغات العمرانية، كما يمكن رؤيته (أي النسيج) من ناحية أخرى على أنه سلسلة متصلة من قنوات الحركة والاتصال. (الشكل ٢٠)

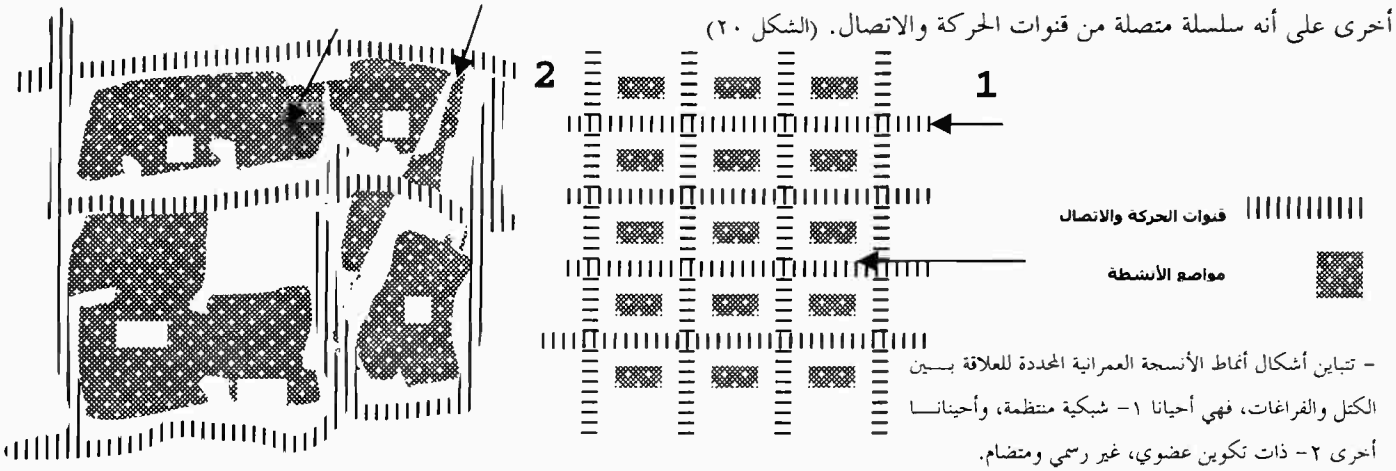

– تتباين أشكال أنماط الأنسجة العمرانية المحددة للعلاقة بين الكتل والفراغات، فهي أحيانا ١– شبكية منتظمة، وأحيانا أخرى ٢– ذات تكوين عضوي، غير رسمي ومتضام.

(شكل ٢٠) التشكيل الفراغي للنسيج الحضري [من إعداد الباحث]

– **يحقق توجيه الفراغ (نحو الداخل /أو الخارج)** بعض جوانب إدراكه على ضوء مفاهيم: الاحتواء / المحتوي the container / the contained، وتكون هذه المفاهيم أكثر وضوحا في المناطق السكنية في المدينة التقليدية فكل المباني موجهة نحو فراغ موجب للداخل، بينما في المدينة المعاصرة يكون التوجيه حول فراغ سالب للخارج، وهنا في الحالة الأولى يكون الفراغ هو المحتوى contained من خلال المباني حوله، والعكس في الحالة الثانية يكون الفراغ هو المحتوي container للمباني. (الشكل ٢١)

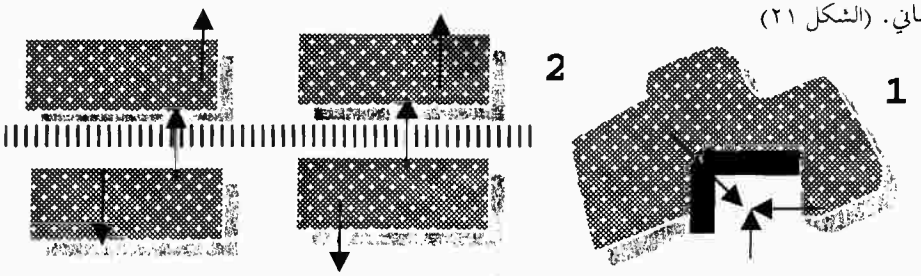

١– تميز توجيه الفراغ السكني في المدينة العربية التقليدية بتوجيهه نحو الداخل على أحواش، بينما ٢– جاء التوجيه في المدينة المعاصرة إلى الخارج ليفقد المدينة خصوصيتها. دون ضرورة لذلك.

(شكل ٢١) أنواع التوجيه في المباني [من إعداد الباحث]

- بصفة عامة يختلف الإحساس البصري في الأمور السابقة على ضوء التعامل مع الفراغ من خلال احترام محددات البعد الثالث (الارتفاع). فالفراغ المفتوح إلى السماء مباشرة هو أقل الفراغات من ناحية الاحتواء، وتتدرج درجات **الاحتواء** بعد ذلك من حيث الشدة حيث تبدأ من مسارات الحركة باعتبارها ممر مغطى نتيجة البروز بالأدوار العليا عن السفلية، أو نتيجة لاستخدام مواد مصنعة من إنشاءات خفيفة، ومنه إلى الممرات ذات البوا كي arcade، ومنها إلى الرواق المعمد وفيه يشعر الإنسان بالحماية الكاملة. (الشكل ٢٢)

- يمكن رؤية الاحتواء على مسارات الحركة المخصصة للمشاة في تدرج واضح: ١- الفراغات المفتوحة دون غطاء ويكون الاحتواء فيها مفقودا. ٢- الإحساس الجزئي بالاحتواء الجزئي في الممرات ذات البواكي والمغطاة جزيئا. (٣) الاحتواء الكامل في الممرات المغطاة والرواق المعمد.

(شكل ٢٢) تدرج درجات الاحتواء على مسارات الحركة

أما عن الإحساس بالاحتواء في الفراغات العمرانية فإنه يختلف وفقا لتغير ملامح الفراغ نفسه وأيضا بتغير عناصره العمرانية المستمدة من الطبيعة أو التي من صنع الإنسان، فأحيانا هناك: ١- احتواء كامل (فراغ مغلق من جميع الجهات)، أو ٢- الاحتواء عند نقط محددة (عند الدخول من مسار حركة إلى فراغ له شكل محدد، والاحتواء في هذه الحالة يمكن الإحساس به فقط عند أطراف الفراغ)، أما ٣- بداية فقدان الاحتواء الجزئي فتكون نتيجة لتعدد المسارات الموصلة إلى ذلك الفراغ، أما ٤- فقدان الاحتواء بالكامل فيكون نتيجة لتعدد مسارات الدخول إلى الفراغ بجانب فقدان الشكل الهندسي للفراغ تماما. (الشكل ٢٣)

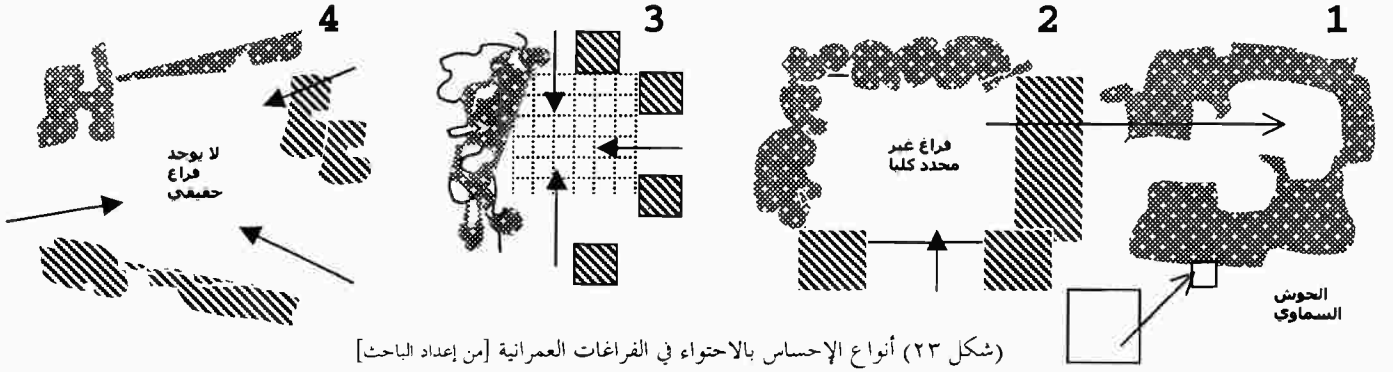

(شكل ٢٣) أنواع الإحساس بالاحتواء في الفراغات العمرانية [من إعداد الباحث]

- أما على مستوى المدينة فيختلف الإحساس بمفهوم الاحتواء في الفراغات العمرانية المستقلة، ولعل أشهر هذه الأمثلة تجدهـــا في المنـــاطق الساحلية المطلة على الماء بعد بناء الأبراج العالية. (الشكل ٢٤)

(شكل ٢٤) الاحتواء العمراني لمباني عالية مطلة على الماء

كما يعطي الارتفاع المبالغ فيه مثالاً هاماً للتأثير السلبي لمجموع المنشآت العالية والضخمة التي أصبحت تحيط بالفراغ. (الشكل ٢٥)

(شكل ٢٥) الاحتواء العمراني حول الفراغ العمراني نتيجة بناء الأبراج العالية من حوله

- يشكل **التدرج في الفراغات العمرانية** إحساساً- مرئياً وفكرياً- مختلفاً للنسيج العمراني، وهذا الإحساس تابع لتغير كل من المقياس والتشكيل ووظيفة الفراغ، حيث يختلف الإحساس بالفراغ السكني المخصص للوحدة السكنية المفردة عن الإحساس بالفراغ المخصص لحرم مسارات الحركة للمشاة في المنطقة السكنية محدودة الحجم والمقياس عنه في الفراغ المخصص لنفس الوظيفة ولكنه يقع في قلب المدينة، وفي كل ذلك يختلف أيضا الإحساس المتولد عن تتابع حركة انتقال الفرد من فراغ إلى فراغ آخر، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا التدرج الفراغي من حيث الحجم والمقياس يشعر معه الفرد باختلاف طبيعة الفراغ وأهميته ويشكل نظاماً حاكماً لشكل النسيج وبعث إمكانات التفاعل معه. (الشكل ٢٦)

- مثال عام للتدرج العمراني — المسكن المفرد — المجاورة السكنية — المجموعة السكنية المركبة

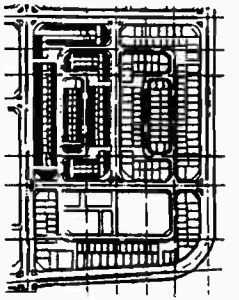

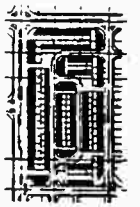

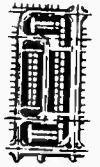

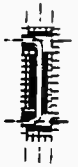

- التدرج في مدينة شطا مصر — المجاورة السكنية — الخلايا الأساسية — الحارة الممتدة — الحارة

- التدرج من الوحدة السكنية إلى المدينة، الوحدة النمطية تكون بتكرارات تنويعاتها المجموعة السكنية المركبة، والمجموعة المركبة تكون بتكراراتها المجاور السكنية.

(شكل ٢٦) التدرج في مناطق السكن وعلى مستوى المدن

كما يمكن تتبع ثاني أشكال التدرج على مستوى عناصر المدينة في الأســـواق التجارية القديمة، ففي سوق مدينة حلب يمكن تتبع التـــدرج من القصبة الرئيسية إلى الفراغات العمرانية متنوعة الاستعمال والمتتابعة في ارتقاء واضح، أما في بازار كاشان بمدينة إيـــران فيمكن رؤية التـــدرج من خلال تتابع الحركة في الأفنية الداخلية كأحد خصائص التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية. (الشكل ٢٧)

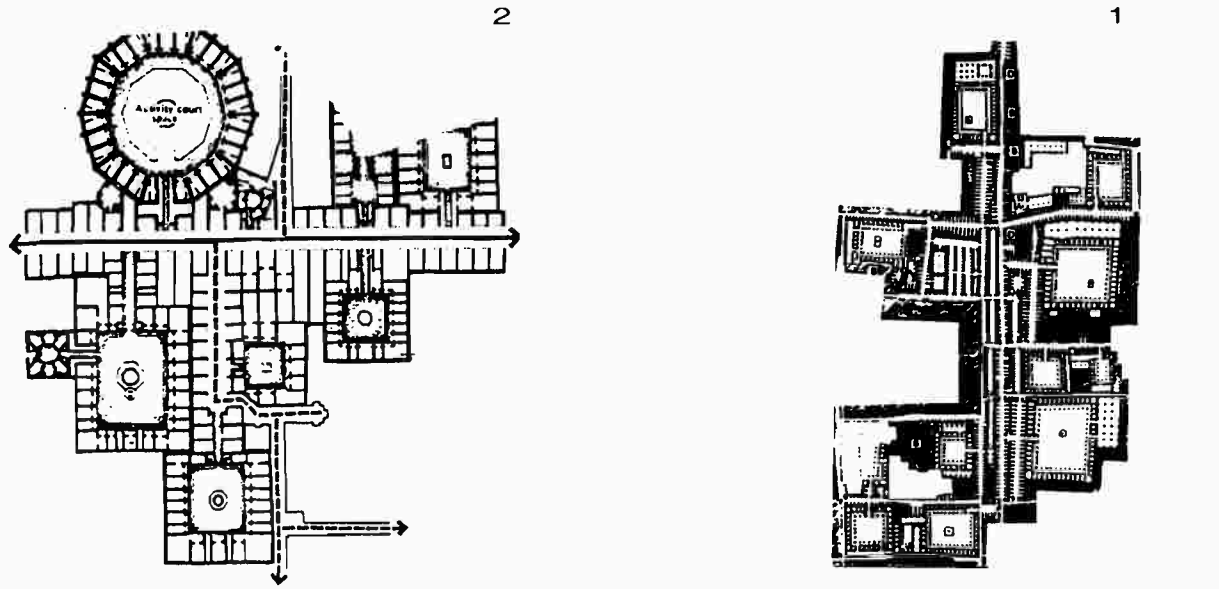

١- سوق مدينة حلب ٢- بازار كاشان

(شكل ٢٧) التدرج في الأسواق التجارية

تشترك **عناصر الحركة والاتصال** التي تتشكل من المداخل والمخارج / البوابات والمعابر/ ومسارات الحركة:المماشـــي والأرصفـــة في تغيـــير الإحساس بالفراغات خلال ثلاثة مفاهيم هي: الإحساس بالحركة والوصول والتخصيص والمقياس (للفراغ المغطى أو المكشوف)، حيث يختلـــف الإحساس بالفراغ كلما اختلفت اتجاهات الحركة, وإمكانات الوصول إلى الفراغ من الوسط الخارجي إلى الداخل، وهذا الاختـــلاف يؤكـــده الاستعمال المتغير لعناصر من صنع الإنسان مثل: البوابات أو استخدام عناصر طبيعية كالنخيل. (الشكل ٢٨)

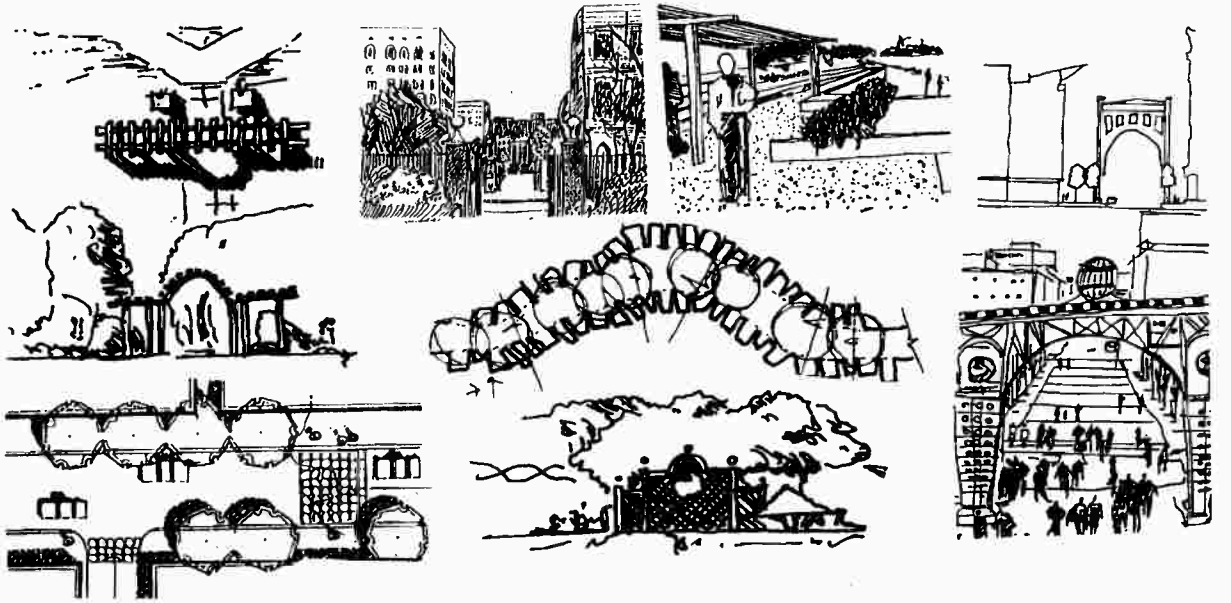

– عناصر الحركة هنا هي البوابات أو المعابر أو ممرات الحركة شبه المغطاة، فعلى مستوى المدينة العربية التقليدية والمسكن العربي القديم كان الدخول إلى الفراغ الرئيسي لهما يتم عن طريق البوابات والمداخل كعنصر حركة مهم ومسيطر، أما في الفراغات المغطاة بأكملها في بعض الأحيان يكون الدخول إليها من خلال مجموعة من الفتحات في كل جهة. وقد تكون عناصر الحركة ممتدة من الأسوار الخارجية إلى الداخل عبر البوابة وبين صفوف الأشجار مكونة محدد قوي للمسار. وقد يكون الدخول إلى المسار أسفل أجزاء المباني المتصلة في الدور العلوي. وأحياناً أخرى تكون الأشجار هي المحدد القوي لمسارات للحركة.

(شكل ٢٨) تغير الإحساس بالفراغ في عناصر الحركة والاتصال

ومن ناحية أخرى يختلف هذا الإحساس نتيجة للانتقال في هذة المسارات شبه المغطاة، حيث يشعر الإنسان بالانطلاق والتحول الحقيقي من الخارج إلى الداخل، كما تحدث الحركة بين النور والظلام إحساساً مختلفاً بالانتقال بين فراغ وفراغ أخر وهذا ما يحققه العبور في هذه المسارات. وتعد مسارات الحركة للمشاة أحد عناصر الحركة والانتقال المهمة وهي أحياناً تعمل كفراغات عمرانية حميمة لصلتها بالمباني من حولها كالأزقة والحارات واستطاعة السكان في هذه المباني أن يستعملوها دون التعرض لأخطار أو مضايقات الغرباء والمنطفلين، ومن ثم يجب العناية بها من خلال دراسة التنسيق الطبيعي والصناعي لتكوين فراغ ملائم لمستعمليه. (الشكل ٢٩)

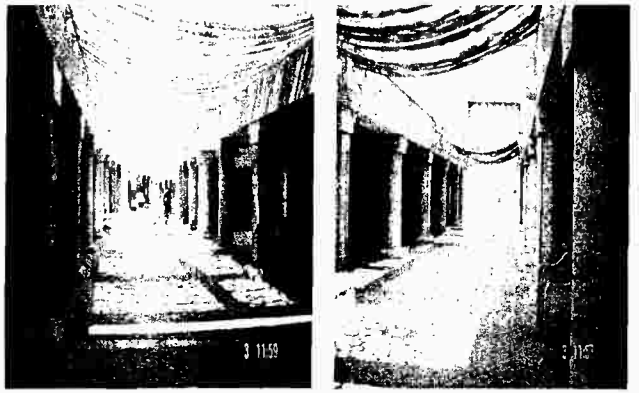

– تحقق مسارات الحركة شبه المغطاة الإحساس الحقيقي بالانتقال بين فراغين، وتظهر القطات الإحساس بالنور والظلام من خلال الضوء العابر من تغطيات هذه المسارات.

– منطقة قصر الحكم بالرياض، السعودية.

(شكل ٢٩) مسارات الحركة شبه المغطاة [من مشاهدات الباحث]

– تضيف **العناصر الطبيعية** باعتبارها إضافات عمرانية مادية متجددة إحساساً مختلفاً بالفراغ من خلال الاستعانة بها كمعالجات: حيث تستخدم المياه والنوافير والتشجير بمفردها, أو باختلاف تداخلها مع تبليطات أرضيات الفراغات. تشكل المياه باعتبارها عنصراً طبيعياً ضمن اجتهادات المصمم العمراني أحد المكملات الأساسية لعناصر التنسيق للموقع، كما تستخدم العناصر الطبيعية كالأشجار بهدف تعديل المناخ الداخلي للفراغات، حيث تحقق تكوينات الأشجار معا أشكالاً مختلفة من الظلال فتحقق هدفاً وظيفياً ومناخياً من جهة، كما تساهم في تغيير الإحساس بالفراغ نتيجة لحركة الظل والنور من جهة أخرى. (الشكل ٣٠)

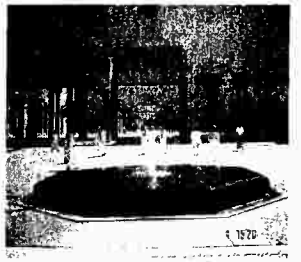

(شكل ٣٠) العناصر الطبيعية: الماء والنبات [من مشاهدات الباحث]

٣. التفاعل بين الإنسان والفراغات العمرانية- تجربة المشاهدة

مهد العرض السابق بما تناول من مداخل للتعريف بنوعيات الفراغ العمراني والقوى والعوامل الإنسانية والمحددات المادية المؤثرة على الإحساس بالفراغ وإدراكه إلى توفير الإمكانية للانتقال المباشر نحو عرض مبحث مراتب الإدراك والانطباع الذهني عن الفراغ العمراني، ويعد هذا المبحث من الأهمية بمكان لتأكيد العلاقة المركبة بين الإنسان والمكان في الفراغ العمراني الواحد في مستوى والفراغات المتعددة والمتتابعة (التي تأخذ في اعتبارها عنصر- زمن الحركة- بعد رابع في التصميم في مستوى آخر. ويركز هذا المبحث على تفاعل الإنسان مع الفراغ على ضوء تجربة المشاهد ارتكازاً على أساسيتين هما: خصائص الفراغات العمرانية،والمتتابعات الحركية الفراغية.

٣. ١ خصائص الفراغات العمرانية

يمكن الإشارة إلى أن إدراك الإنسان للفراغ يكون نتيجة لفهم الأبعاد الأساسية المكونة له وهي: البعد الأفقي والارتفاع والزمن: والمقصود به زمن الحركة الذي يأخذه الإنسان في الانتقال بين موضع وموضع آخر. وفي حيز التعرف على نوعيات الفراغ وخصائص أدائه أمكن التعرض للأبعاد الثلاثة (الفراغات الحميمة: الأفقية والارتفاع). ويمكن الإشارة إلى تلك الملامح المستمدة من التكوينات والتشكيلات التي تحدثها عناصر الفراغات ذاتها مثل الأسطح من ناحية التقعر أو التحدب، وعلاقة خط السماء بخط المنشآت أو الأرض أو الماء, طبيعة السطح وعلاقته بحركة الأشخاص والتجهيزات والمرافق والمعالجات الخاصة مثل: النوافير ومساقط المياه، والتفاصيل مثل: أعمدة الإنارة وفرش المكان، وكلها عوامل مادية من صنع الإنسان يمكن إدراكها بالمشاهدة المباشرة.

٣. ٢ المتتابعات الفراغية

تعد الحركة داخل الحيز الفراغي من أهم العوامل المؤثرة على إمكانية بعث قدرة الإنسان على الإدراك لكل ما حوله بسهولة. ففي واقع الأمر يكون التفاعل بين الإنسان وما حوله أقل ما يمكن في حالة السكون وذلك لحدودية مجال الرؤية, ويظل التكوين الذي يمكن أن يراه المشاهد وحيداً وغير متجدد, وتنعكس الصورة المرئية في هذه الحالة بشكل ثابت.

أما التفاعل الحقيقي بين الإنسان والمكان فانه يكون نتيجة لتغير تجربة المشاهد التي تحدث في توازن مع الحركة مكونة الصورة البصرية الجديدة كلما تغير موقف المشاهد وحالته أو تعددت مجالات الرؤية، ويشير (لينش) lynch إلى أن التأثير على الصورة البصرية الذي يحدث نتيجة للمشاهدة يتكون نتيجة لعاملين هما: المسافة والزمن، والمقصود بالصورة هنا أنها: "إعادة ترجمة الإحساس البصري بالإضافة إلى عامل الزمن".[١٨]

كما تعني الصورة البصرية بتلخيص كل الإدراكات التي تمت عن طريق الحواس (وخاصة البصر) وتحولت إلى انطباعات في الذهن وأمكن فهمها كصورة ذات دلالات ومعان معاً. أما الموقع المرئي فيمكن تعريفه بأنه الحيز الفراغي للمكان موضوع المشاهدة (الرؤية)، وتختلف المواقع وفقاً لاختلاف السمات والملامح المميزة لها، ولكن تظل هناك عناصر محددة تمكن من فهم المكان وإدراكه موجودة في كل موقع ويطلق عليها عناصر تكوين الصورة البصرية visual image والتي تأخذ من عوامل تحديد نوعية الفراغ إطاراً لها. (الشكل ٣١)

- المشهد من جزيرة المرجان، المنطقة الشرقية، السعودية

(شكل ٣١) بعض عناصر تكوين الصورة البصرية [من مشاهدات الباحث]

بالإضافة إلى ذلك يمكن حصر عناصر تنظيم الإدراك المرئي للفراغات المحيطة في [١٧]: التعرض، التمايز والتفرد والهوية، المعاني، والإنشاء. وفي كل الأحوال تختلف الصورة المرئية باختلاف المشاهد ذاته والتي تتغير وفقاً لحالته النفسية والجسدية العضوية، وعلى ضوء خبراته الشخصية المكتسبة ومتطلباته وأهدافه الإنسانية، كما تتغير بتغير الزمان والمكان. وكلما كانت الحركة داخل المكان سهلة كلما كانت الصورة المرئية واضحة ويمكن تذكرها وهذا ما يطلق عليه تكوين الانطباعات المرئية سواءً كانت بسيطة أو معقدة.

٣. ٣ تجربة المشاهد

أما **المتابعات الحركية** كمفهوم في هذا العمل فيقصد بها عملية الانتقال خلال مسار محدد داخل البنية العمرانية المكانية سيراً على الأقدام, أو بأي وسيلة حركة تمكن من المشاهدة ويكون الانتقال بداية من نقطة محددة وحتى نهاية الموضوع بمجال الرؤية المقصود مشاهدته.

وتأتى المتابعة في متوالية تشترك فيها مجموعة من العوامل المؤثرة على ردود فعل الإنسان نتيجة لحركته في الفراغ. ويمكن إدراك المتابعة الحركية في الفراغ خلال مجموعة من المستويات تبدأ بالمستوى الأفقي ثم رؤية الحيز المكاني بإدخال عامل الارتفاع وأخيراً بإدخال عمل الزمن الذي يمثل منطق الحركة. وجدير بالذكر أن هناك علاقة تدرج وتتابع من الإدراك perception إلى الانطباع البصري، فيدرك الإنسان بداية بعد انتقال الصورة من العالم الخارجي إلى مراكز في المخ ومنها إلى مناطق الفهم والاستيعاب ثم يتحدد الانطباع الذهني ويصاغ بعد ذلك وفقاً لنوع الشخص وطبيعة وإمكاناته من ناحية والزمن الذي يقضيه داخل الفراغ من ناحية ثانية.[١٢]

ويمكن ذكر بعض المداخل التي يمكن بها صياغة الاستفادة من تجربة المشاهدة في [١٣]:

- الإنسان لديه الرغبة الدائمة في التعرف على المحيط الحيوي من حوله خلال مجموعة من الدلالات التي تحقق له بالتبعية جوانب الإحساس النفسي والوظيفي للفراغ.
- الإنسان هو الذي يضفي المعاني على المكان، أما الموجودات فهي تمثل الأدوات التي يستعين بها لتأكيد هذه المعاني وتدعيم وجودها، كل هذه الأمور المقصود بها المحاولات التي يقوم بها الإنسان بقصد تجهيز المكان حوله ليتلاءم مع كل أهدافه وممارساته الحياتية.
- ملكية الإنسان للمكان أو مجرد إحساسه بالامتلاك لجزء منه يجعله قادراً على تعميق الإحساس المميز للفراغ الذي يتلاءم مع توجهاته، وهذا واضح في المنشآت والمباني التي تقع أمام الساحات العمرانية المكملة لها وكيفية التعامل معها للاستفادة بها.
- إدراك الإنسان للفراغ وانطباعاته المنعكسة نتيجة لتجربة المشاهدة من الصعوبة تواجدها إلا إذا توافرت الشرائط البنائية المحددة للفراغ (كالأشجار) بقصد تحويله إلى فراغ محدد الملامح يمكن الإحساس به عند المرور خلاله أو بجانبه.
- التجربة الناتجة عن المشاهدة لأول مرة للمكان تمكن فقط من تحديد بعض الملامح العامة والمفردات الأساسية، وتكرار المشاهدة يتكون عند المشاهد ما يعرف بخبرة المشاهدة الناتجة عن استمرار التلقي والإحساس والإدراك والتفاعل والمعايشة، ومن المعروف أن الملامح العامة التي تكسب المشاهد خبرة المشاهدة تكمن خلف تواجد العناصر العمرانية المتكررة والفريدة بالمواقع مثل تكرار الوقفات والأشجار وتغير المستويات وخصوصية المكان وغموضه والمكملات المهمة كالمياه.

- أما عن تنوع تجربة المشاهد فإنها بالتبعية تكون من خلال الاستعانة بعناصر البيئة مع التركيز على الإحساس بالاستمرارية من خلال البدايات والإطارات والتفاصيل والتركيب والاستقلالية.

و بتحليل بعض المحاولات التي قدمت بعض الأمثلة لاستخدام تجربة المشاهدة وتأكيد نتائجها على ضوء الاكتشافات المرئية الناتجة عن المتتالية والمتابعة الحركية في الفراغ أمكن الوصول إلى أنه يمكن إطلاق مفهوم التجربة البصرية ودلالاتها كأداة تساعد على قراءة الفراغات العمرانية والإحساس بها والتفاعل معها[١٨]. (الشكل ٣٢)

- المصدر: Antoniou, Jim, ARIB, MRTRI, Environmental Management Planning for TraficMcGraw Hill,Book Company (UK) limited.(P.133) (1971)

(شكل ٣٢) مثال للمتابعة البصرية الناتجة عن الحركة والانتقال في المكان

ومن هنا فإن قراءة المكان يحقق مردوداً نفسياً يصاحب المشاهد نتيجة للتناقضات المفاجئة التي يشعر بها هذا المشاهد المتحرك وهو الأمر الذي يساعد على تحقيق الحيوية للمكان التي من المفترض أن على المصمم / المخطط تحقيقها دوماً من خلال الاستعانة بالمتتابعات الفراغية التي تنشأ نتيجة لجهدهما في التعامل مع عمران المكان. (الشكل ٣٣) (الشكل ٣٤) (الشكل ٣٥)

- تجربة المشاهدة أداة للتعرف على المكان من خلال قراءة بعض ملامح الأمكنة المفتوحة من خلال مكوناتها والنشاطات التي تتم فيها والإحساس بها والتفاعل معها.١- الكتلة العمرانية السكنية، ٢- مواقف السيارات أمام مكتبة عامة لبيع الأدوات المدرسية، ٣- أسوار تحديد الملكية لحديقة عامة، ٤- عمارة مناظر الشوارع.

- المشهد من طريق كورنيش الخبر, السعودية.

(شكل ٣٣) تجربة المشاهدة [من مشاهدات الباحث]

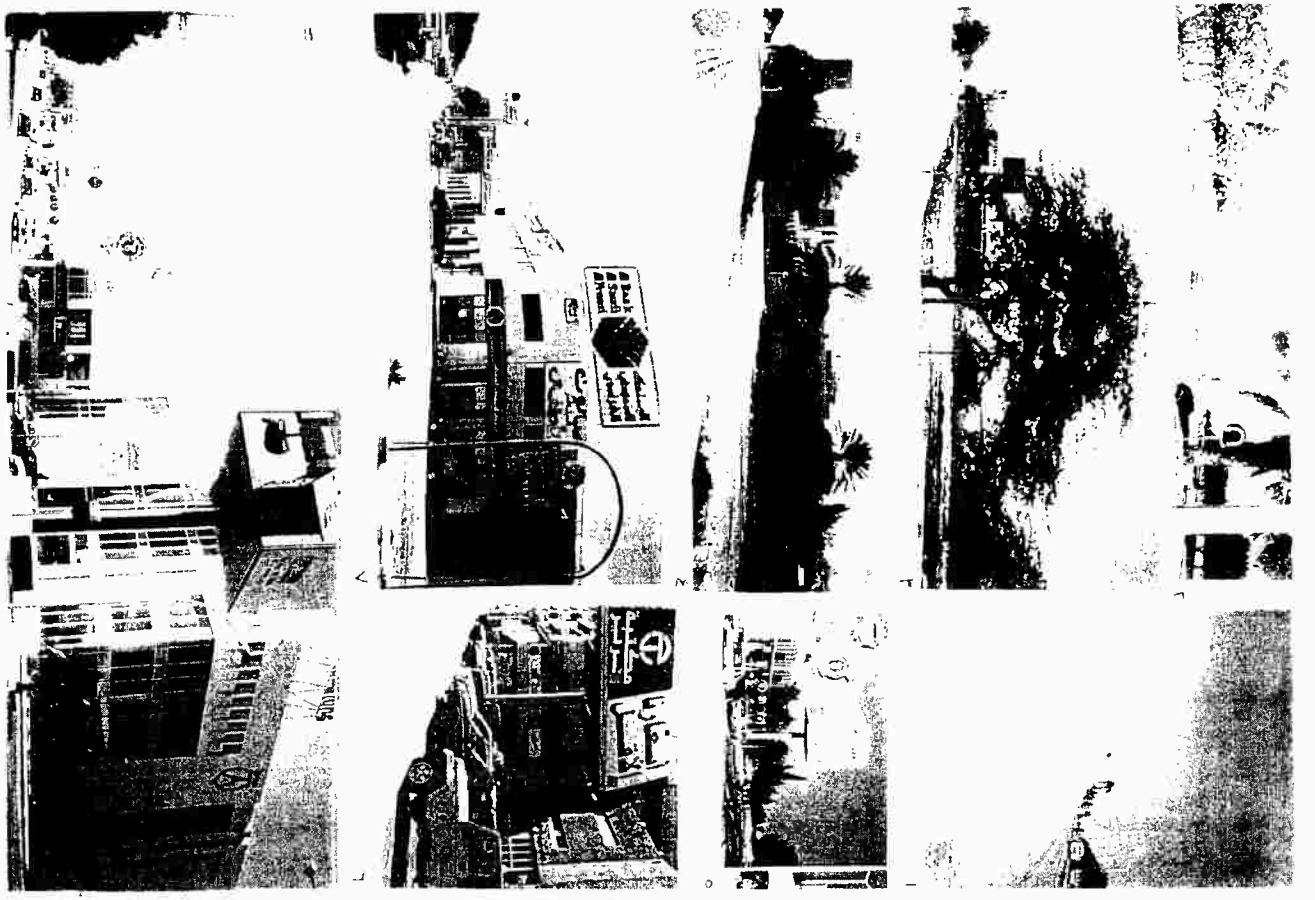

- يمكن تكوين تجربة مشاهدة حقيقية من خلال تكوين الانطباعات البصرية التي يحصل عليها المشاهد أثناء حركته وانتقاله بالسيارة أو على الأقدام واستناداً إلى عناصر تكوين الصورة البصرية على النحو الأتي: (١)و(٢) حدود قصر سمو أمير المنطقة الشرقية. (٣)و(٤) مسار الحركة على الطريق الرئيس للمرور الآلي وأرصفة المشاة.(٥) و(٧) لافتات الإعلانات كعلامات مميزة على الطريق السريع. (٦) مواقف السيارات كمناطق للتجمعات.(٨) و(٩) مشهد عام يضم العلامات المميزة (لافتات الإعلانات والمباني الضخمة) ومناطق التجمعات (مواقف السيارات)، ويمكن اعتبار المشهدين كمسطحات أو مساحات لقطاعات متجانسة يدللان على وجود منطقة سكنية.

- المشهد من كورنيش مدينة الخبر، المنطقة الشرقية، السعودية.

(شكل ٣٤) تجربة المشاهدة [من مشاهدات الباحث]

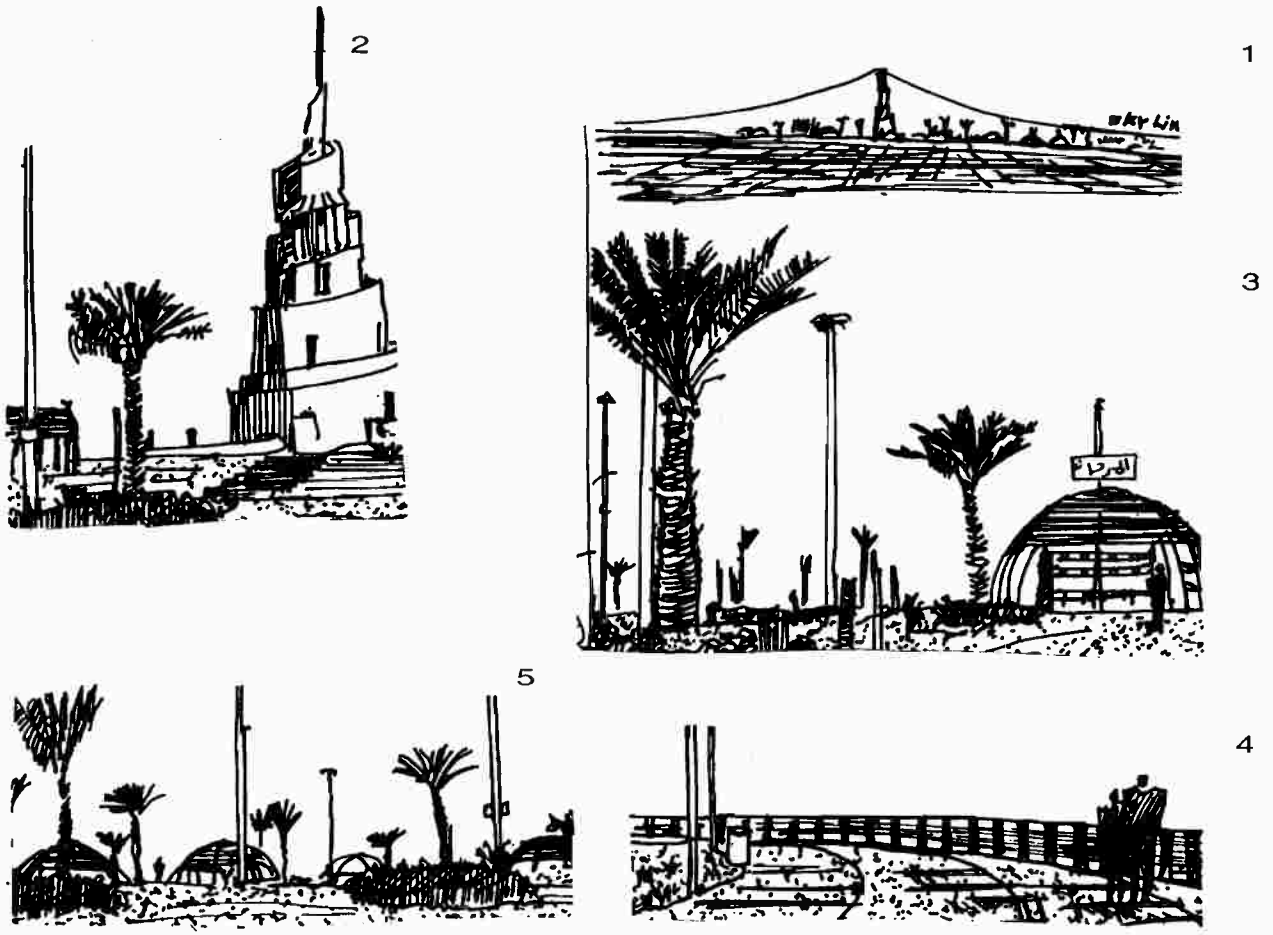

- مشاهدات قيمية للفراغات العمرانية لأكبر مناطق التجمعات الحالية على كورنيش الدمام، حيث توضح اللقطات التالية بعض الملامح العامة للصورة البصرية التي يمكن أن تكـــون مـــردوداً عمرانياً لتغيير التشكيل بما قد يتلاءم مع المتطلبات الإنسانية في المملكة العربية السعودية. ١- منظر كامل للجزيرة. ٢- البرج كعلامة مميزة تطل على المناطق الخضراء. ٣- كافيتريا جزيرة المرجان كنقطة تجمع. ٤- الحدود التي تفصل مسارات المشاة على الساحل. ٥- مناطق التجمع المعبّرة عن الفصل الكامل بين أمكنة الجلوس. بما يتناسب مه التوجهات القيمية من نـــاحيتي الخصوصية والتوازن بين العمومية والخصوصية، وتظهر فيها مسارات المشاة (أعلى) والمسطحات الخضراء (أسفل).

- المشهد من جزيرة المرجان، الدمام، بالمملكة العربية السعودية.

(شكل ٣٥) تجربة المشاهدة [من مشاهدات الباحث]

٤. الفراغات العمرانية في المدينة العربية (القديمة/ المعاصرة)- مشاهدات قيمية

تفيد المراجعة المدققة لبعض الأدبيات حول عمران المدينة العربية- في جوانب التركيز على الفراغات العمرانية كمكونات أساسية- في الوقوف على بعض السمات والملامح المميزة لها باعتبارها مكونات لثنائية عناصر النسيج العمراني: مواضع النشاطات ومسارات الحركة والانتقال. وتخرج الطرق (المعدة للمرور الآلي) ومسارات الحركة للمشاة باعتبارها فراغات عمرانية ذات وظيفة أساسية تعني بالانتقال والحركة المباشرة من التوصيف الحالي لهذه الدراسة، ويصبح الحيز المكاني المشار إليه كفراغ هنا هو ذلك الفراغ الذي يسمح بممارسة الأحداث المتعلقة بنشاطات حيوية لا يمكن ممارستها إلا في البيئات الخارجية المفتوحة أو نصف المفتوحة, وهي تتعدد بين نشاطات ترفيهية أو ذات مضمون تذكاري أو توفر حيزاً رحباً لإقامة العلاقات الإنسانية بين الأفراد المقيمين في هذا الحيز أو المترددين عليه. وتصبح كل هذه الحيزات أنوية للتكوين العام للمدن أو المناطق السكنية أو حتى على مستوى عمارة المبنى السكني المفرد.

ويمكن الاستفادة من السمات والملامح المميزة للفراغات العمرانية المستخلصة من المراجعة النظرية من منظور دراسة القيم لتكون ضوابط موجهة للمشاهدات الميدانية للفراغات العمرانية في المدينة العربية الإسلامية المعاصرة. إذن يتدرج العرض هنا بداية من التحليل النظري إلى المشاهدات العامة[١][٢][٣][٤][٥][١١][١٤]:

١- كان يطلق على الميادين **الرحبات** وكانت متعددة الوظائف وتمارس خلالها مجموعة متنوعة من النشاطات وفقا لتغير الاحتياج والمناسبات في المواسم أو في اليوم الواحد. وهي كما يبينها (بن يوسف) فراغات ذات طابع جماعي واجتماعي، ففيها تتم اللقاءات الثقافية والتبادل الإعلامي وتوفر المجال الملائم لكل الممارسات الجماعية- وهي تختلف عن الساحات العمومية المعروفة في المدينة الإغريقية كمكان للتسلية واللهو وهو أمر غير مرغوب في الإسلام (إلا في حدود ما يتيحه الشرع)، كما استعملت هذه الميادين لإقامة الأسواق الدائمة والمؤقتة بها وإقامة الشعائر الدينية فكانت مصلى للعيد كما استعملت لاستعراضات الجند (في ابتداء العصر الأموي) [١١]. (الشكل ٣٦)

-سوق وسط مدينة الرياض (١٩٥١م)

المصدر: الرياض، عين الأصالة ورونق الحداثة، الهيئة العليا لتطوير الرياض.

(شكل ٣٦) الأسواق التقليدية في الرحبات والميادين في المدينة العربية

٢- الساحات العمرانية التقليدية عبارة عن (رحبات) أو ميادين اختلف شكلها وفقا لمضمون استعمالاتها عن الساحات في المدن غير العربية كالفرس والرومان والإغريق ولكن كان التركيز الأساسي على توفير أماكن للأسواق وكمصلى للعيد (في بدايات الإسلام)، واستمرت فترات طويلة على هذا النحو إلى أن أضيف لها نشاطات أخرى مثل: الأمسيات أو اللقاءات الشعرية والاستعراضات العسكرية [٤]. (الشكل ٣٧

(شكل ٣٧) الساحات العمرانية التقليدية

٣- يعد **مفهوم الحرمة** ذا دلالة في إدراك الفراغ العمراني في المدينة العربية على أنه فراغا محددا ومحتوى موجه إلى احترام الارتباط الموضوعي بين عناصر المدينة ومكوناتها, فارتبطت المدينة الإسلامية بروابط وعقد على شكل منافذ ومداخل حاجبة توجد عند الربط بين مداخل المساكن, وفي علاقاتها مع الدروب والمسالك الوصلة للشارع العمومي, كما ربطت داخل المدينة وخارجها منافذ حاجبة والأبواب ذات الزواية المنحنية لحجب الداخل عن أنظار من في الخارج، ويساعد هذا المفهوم على إدراك نوع الفراغ من الناحية الرمزية التي ترتبط بفلسفتها كمكان للعبادة، كما يساعد ذلك على إدراك مهمتها الوظيفية الضابطة لنوعية الممارسات الاجتماعية، ويعكس النتاج مفهوم القيمة من الناحية الجمالية من خلال الأنساق الأقل مثل الحدود والستائر والروابط والعقد وكلها نابعة من روح مفهوم الفراغ العاكس لمعنى الحرمة. (الشكل ٣٨)

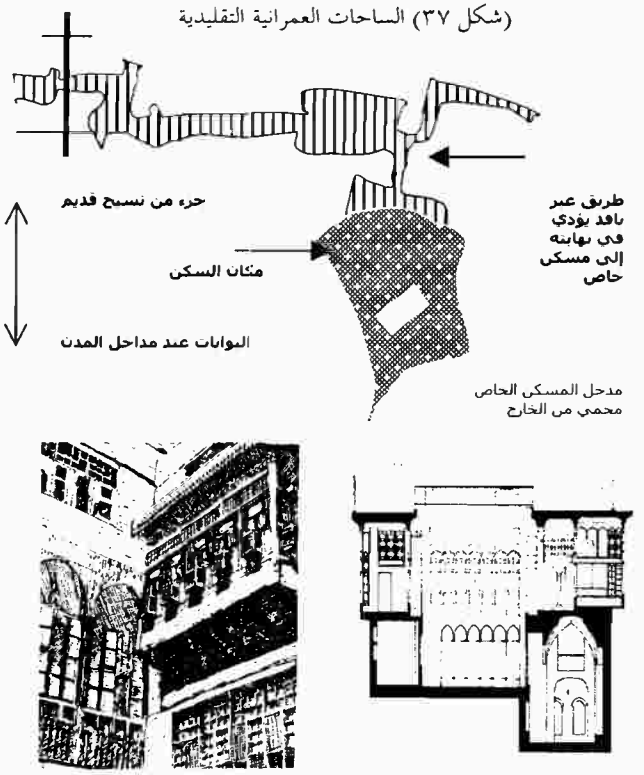

(شكل ٣٨) الفراغ العاكس لمفهوم الحرمة

٤- يلعب **مفهوم الملكية المجاورة والمنفعة المشتركة** دورا في صياغة الفراغات العمرانية المعروفة بالأزقة، ويشير إليها (الهذلول) بأنها "شكل من أشكال الفراغات المفتوحة شبه الخاصة وذات المنفعة المشتركة بين السكان، وتختلف الأزقة هذه بين مفتوحة على طريق عام أو دروب غير نافذة، والنشاطات المسموح بها تدخل ضمن اختصاص السكان أصحاب الملكيات المتصلة بها وأن القانون لن يتدخل إلا إذا طلب السكان ذلك بشكل صريح"[٤]. ويؤكد الهذلول على "الاستعمال المتكرر لنظام البوابات التي كانت تختار عند مداخل هذه الأزقة التي ينظر إليها على أنها فراغات ذات ملكية شبه خاصة."[٤]

٥- استخدمت **الأزقة** في المدينة المنورة منذ نشأتها لممارسة النشاطات الاجتماعية المحلية والاحتفالات الشعبية والنشاطات التجارية، واختفت بعض العناصر التخطيطية المميزة كمكونات النسيج العمراني للمدينة المعاصرة، وهو الأمر الذي حد بشكل كبير من هذه النشاطات بين أفراد الجماعة الواحدة وفي المنطقة السكنية بشكل لافت للنظر [١٤]. (الشكل ٣٩)

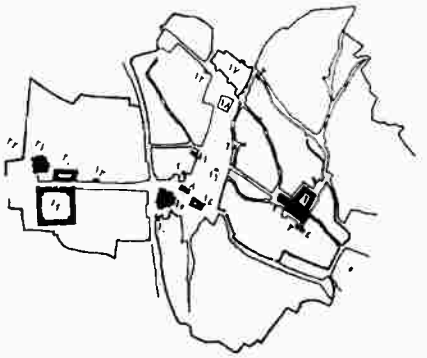

(شكل ٣٩) الأزقة في المدينة المنورة

٦- اختفاء ما يمكن أن يطلق عليه **التوجيه الكامل نحو الداخل** باستخدام الأفنية والأحواش الداخلية، وظهرت بدلا منها الفراغات الخاصة داخل الأسوار العالية على مستوى المسكن المفرد، بينما نفذت المساكن المجمعة والعمائر السكنية دون الاستفادة بأي فراغ داخلي خاص، ولعل الضرورة تدعو بحق كل المصممين للبيئة الخارجية إلى الاجتهاد في الوصول إلى شكل أكثر ملاءمة للمستعمل العربي المسلم.

٧- لم تعالج الفراغات العمرانية بما يتلاءم مع **معيار الخصوصية وقيمة الحرمة والعلاقة بين الجنسين** حيث لم يتغير بشكل موضوعي التعامل مع المناطق المفتوحة عامة والفراغات العمرانية خاصة في بعض المدن العربية المعاصرة مثل السعودية ومصر والتي ما تزال تحتفظ بالكثير من التقاليد والقيم الإسلامية على وجه الخصوص، في جانب العلاقة بين الجنسين والخصوصية الأسرية والفردية. لكن لم يؤخذ هذا التأثير القيمي في الاعتبار عند التعامل مع النتاجات البنائية المعاصرة، فتجد الفراغات العمرانية التي تتشابه أو تكاد مع تلك الموجودة في النمط الغربي الداعي للاختلاط. وهو الأمر الذي أدى إلى إحجام كثير من المواطنين في تلك البيئات الاجتماعية العمرانية عن استعمال هذه الفراغات إلا بالشكل والأسلوب الذي يتلاءم معهم من ناحية تخصيص أماكن للعائلات وإعداد الأماكن العامة بما يوفر الحماية من المتطفلين والغرباء، كما أمكن الاستفادة من تأثر عامل المسافة على إدراك المشاهد لكل ما يراه فاختار البعض منهم الأماكن البعيدة نسبيا عن المترددين. (الشكل ٤٠)

2

1

١- مكان مفتوح في إحدى الشوارع التي تتداخل فيها حركة السيارات والمشاة معا.

٢- مكان مفتوح في ساحة مدينة معاصرة.

(شكل ٤٠) الأمكنة الخارجية المفتوحة في العمران المعاصر وبعض أشكال تعامل المستعملين معه [من مشاهدات الباحث]

٨- تعاني المدن العربية- بحكم الموقع والموضع- من **التأثيرات البيئة المناخية** شديدة التأثير وخاصة على الأوساط الخارجية والمفتوحة صيفا أو شتاء، حيث المناخ الحار وشديد الحرارة مع رطوبة مرتفعة في أشهر الصيف والأمطار في أشهر الربيع والشتاء. وفي الأعم الأغلب من هذه الشهور يصعب التواجد في الأماكن المفتوحة دون الاستعانة بالمعالجات المعمارية والعمرانية التي تمكن من التغلب على الإجهاد الحراري الزائد، وتحقيق الراحة الحرارية للإنسان. ويمكن للمقيم العادي لملامح المعالجات في الفراغات العمرانية في هذه البيئات اكتشاف أوجه التناقض بين الظروف المناخية والتصميم العمراني، ومنها: عدم تغطية الأماكن المفتوحة لحمايتها بالظلال، وكبر حجم الفراغات العمرانية العامة وشبه العامة, وعدم ملاءمة نسب العمق إلى العرض والارتفاع لزوايا سقوط الإشعاع الشمسي خاصة في شهور الصيف. (الشكل ٤١)

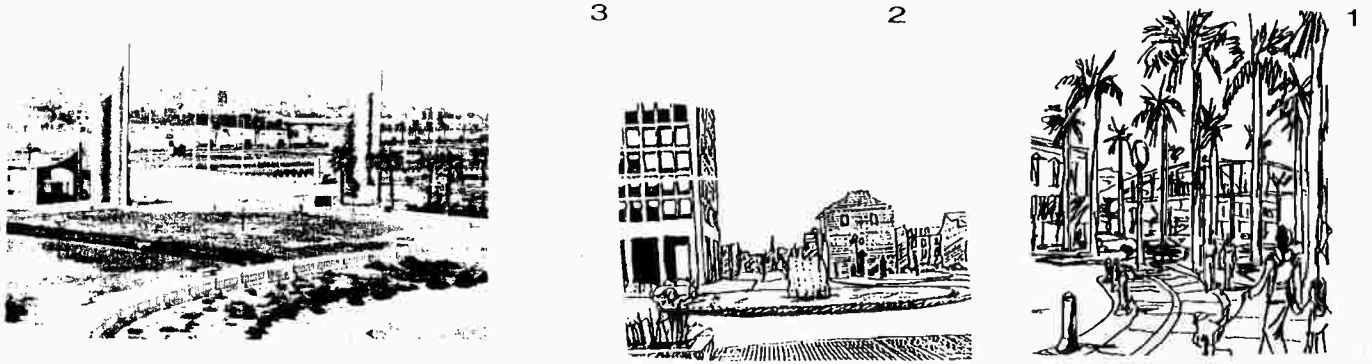

- أمكنة مفتوحة تظهر فيه نسبة التعرض للإشعاع الشمسي نتيجة لعدم وجود مظلات.

(شكل ٤١) الأمكنة الخارجية المفتوحة وبعض أشكال تجاهل الحماية من التأثيرات المناخية [من مشاهدات الباحث]

٩- استقطعت حيزات متعددة من **المناطق المفتوحة في الأماكن المواجهة للبحر** وخصصت كمناطق ترفيهية أو ملاعب أو نواد للنقابات المهنية والشركات أو المجموعات من الأفراد (ملكية شديدة الخصوصية)، وهو الأمر الذي حد من الوجود الطبيعي المتميز لها سواء من ناحية المناظر واتجاهات الرؤية أو من ناحية الملكية والتعدي على مفهوم الملكية والمنفعة المشتركة (على المشاع). (الشكل ٤٢)

١- مناطق مفتوحة على المشاع وتظهر فيها نشاطات الترفيه المختلفة. ٢- كافيتريا مطلة على مجرى مائي.

(شكل ٤٢) بعض الإشغالات في الأمكنة الخارجية المفتوحة في الأماكن المواجهة للبحر [من مشاهدات الباحث]

١٠- **تباين الاستعمال غير الموفق لمفهوم الساحات العمرانية** أمام النشاطات شبه الخاصة والعامة، ففي مصر لم تعد هذه الأماكن موجودة أو كادت تنعدم نتيجة لارتفاع أسعار الأراضي والرغبة في الاستفادة من كل جزء من الأرض المملوكة في البناء، أما في السعودية وبعض الدول العربية الأخرى فقد استعين بهذه المساحات الفضاء لتوفير مناطق خارجية ذات طابع جمالي، ولكنها غير مستخدمة بكفاءة نتيجة لتعارض التصميم مع مفاهيم الخصوصية والحرمة وحق الطريق من جهة لعدم ملاءمتها للعامل المناخي ومؤثراته غير المرغوبة من جهة أخرى.

١١- تتميز المنتزهات في المدن العربية الإسلامية المعاصرة **بالاستعمال الموفق لكل العناصر التي يتدخل في صنعها الإنسان** بما يتوافق مع أسس عمارة البيئة وجماليات العمران مثل: الغطاء النباتي ومعالجات الأسطح والتشطيبات وأماكن الجلوس والإضاءة والأسوار النباتية وأماكن لعب الأطفال الآمنة ومساقط المياه والنافورات، مع تعارض بعض تكوينات فراغاتها مع المبادئ العربية كالحرمة والخصوصية. (الشكل ٤٣)

(شكل ٤٣) المنتزهات في المدينة العربية المعاصرة [من مشاهدات الباحث]

١٢- يمكن رصد **القيم الإنسانية بعد ترجمتها مهنيا وعمرانيا ومعماريا في النتاج البنائي كأنساق للقيم** ورصدها في المدينة العربية على النحو التالي:

١٢-١ يشكل **العامل الاقتصادي** في الوقت الراهن أهمية بالغة في التأثير على حياة المجتمعات الإنسانية من حيث الرقي أو الانحدار. وتلعب القيم الإنسانية في هذا العمل دورا في أحداث التوازن المركب بين تحقيق متطلبات العائد المادي من جهة والحفاظ على الهيكل الاجتماعي- الثقافي الملتزم في المدينة العربية لكل ما تحمله من توجه عقائدي لازم وواحد مهما تعددت الآراء والمبررات نحو الاتجاه المعاصر من جهة أخرى. هذا

التوازن يمكن تحقيقه من خلال اعتبار المناطق المفتوحة كمورد للتمويل وكحق لكل إنسان ومحدداتها القيم الإنسانية الواجب تحقيقها في المجتمع العربي، وإنه يمكن تحقيق هذا العائد من خلال الإضافة المتميزة لمجموع النشاطات التي تخدم أهداف المستعملين من كل الأعمار والمستويات. هذه النشاطات يمكن أن يكون لها العائد الاستثماري الخاص بها من خلال ما يوفره لهم من العاب مختلفة، ومكملات الرياضة للشباب، والمناطق المخصصة للوجبات السريعة، ومستلزمات القراءة والتسلية لكبار السن. ومن جهة أخرى يمكن الاستفادة بتقنيات العصر المستحدثة في تزويد الفراغات العمرانية بالمتاحف المفتوحة سواء تلك التي تتضمن النباتات النادرة أو العائلات الحيوانية التي تتميز بها البيئات المختلفة وكذلك الطيور النادرة والمحلية، وكلها يمكن أن تحقق الجانب المادي وأيضا الجانب الثقافي التعلمي.

١٢-٢ يمثل **الجانب الثقافي- الاجتماعي** مدخل حاسم في صياغة ملامح المجتمعات العربية وتشكيل أسلوب الحياة بما يتضمنه من أسس الارتباط بالتوجه العقائدي / الديني ومستلزمات انعكاسات تعاليم هذا التوجيه على كل ما له ارتباط بحياة الإنسان على الأرض، ومن ثم فإن هذه التعاليم فرضت مجموعة من القيم الإنسانية التي كان على البناء العربي المهتم بتخطيط المدينة وأماكن السكن والمعيشة فيها مراعاتها بشكل ملزم، ومنها: الخصوصية ومكانة المرأة وتوفير الحماية الكاملة لها (بتأكيد مفاهيم الفصل بين الجنسين وتخصيص أماكن محمية للنساء والتوازن بين المتطلبات الترفيهية وقضاء أوقات الفراغ وأسس متطلبات تحقيق هذه الحماية من خلال صياغة عمرانية تفيد في توجيه هذا التوازن والحفاظ عليه)، الاهتمام بتربية النشء والشباب على أهمية قضاء أوقات الفراغ في النافع والمفيد وممارسة النشاطات الرياضية بكل أشكالها المركبة والبسيطة في الأماكن المفتوحة, تحقيق الجانب الجمالي والبيئي بعيدا عن التلوث بكل أشكاله الصوتي والمرئي والغازي، مراعاة توفير البيئة الأوفق لكبار السن وتوفير احتياجاتهم الاجتماعية والبدنية بما يتلاءم مع متطلباتهم، سعادة الأطفال وتوفير الحماية الكاملة لهم من أخطار الطريق والعوائق الأخرى مع توفير أماكن ملائمة للمسؤولين عن متابعاتهم وتتدرج تحتها العديد من المعايير الأهم :

- الاهتمام بالمكان والتوافق والتلاؤم.
- تحقيق المقياس الإنساني في القطاعات الحجمية للفراغ كل بما يتناسب مع طبيعته.
- العناية بالفراغات العمرانية كأماكن لنقل الحركة بين مواضع النشاطات المتعددة.
- توظيف أماكن الدخول بما يتلاءم مع طبيعة الفراغ والحيز العمراني والمحيط الطبيعي.

١٢-٣ **تباين النشاطات التي يمكن أن تمارس داخل الفراغات العمرانية كما تتباين أوقات استعمالاتها على مدار الفترات المناخية اليومية والموسمية**، وهو الأمر الذي يتطلب أن تكون هناك بعض المعالجات الطبيعية ومعالجات التصميم التي من صنع الإنسان والتي تمكن من مواجهة هذه الظروف للحد من الضار منها والاستفادة بما هو ملائم على وجه الخصوص في المناطق الحارة وشديدة الحرارة. ومن هذه المعالجات: الاستعمال الموفق للنباتات الصحراوية

التي توفر غطاء طبيعيا يحمي من الإشعاع الشمسي ويؤكد على توفير الظلال، وكذلك مجموعة النباتات التي تحمي من حركة الرمال وحركة الهـــواء غير المحبب كرياح الهبوب، والاستفادة من مفاهيم التشكيل المتضام / المدمج الذي يمكن تحقيقه من خلال العلاقة بين الكتل والحيز المكاني الفراغـــي الملائم. أما عن القيمة التي يمكن تحقيقها من تلبية هذا الاعتبار فهي تأتي في الأصل تحت متطلبات الراحة بكل ما تتضمنه من احتياج مادي ومعنوي للإنسان، وبالتبعية تتحقق شرائط الهدوء النفسي التي تبنى على حسن الخلق وإماطة الأذى والتعاون والألفة والرغبة في المعاونة.

١٢-٤ تستمد القيم التشريعية والتنظيمية قوتها من مدى ملاءمة أساسياتها للمتطلبات الإنسانية السائدة في المكان، وهي تشكل الجانب القـــانوني الحاكم لمنع أو الحد من التعارض بين ما هو قيمي مرغوب وكل المخالفات غير المرغوبة، فهناك التشريعات المنظمة لارتفـــاع المبـــاني في المنـــاطق السكنية وأشكال الردود ومواضع الفتحات في الواجهات المطلة على الفراغات العمرانية شديدة الخصوصية. كما تفيد التشريعات في صياغة أســس تصميم وتخطيط تعمل كمعايير عند الإعداد وأيضا عند التقييم. وثمة العديد من الأمثلة الخاصة بالتشريعات وتلبي متطلبات القيم الإنسانية، ومنها:

- حق الارتفاق والملكية المجاورة والمنفعة المشتركة وما تشكله كل منها من أهمية بالغة في تشكيل الفراغات العمرانية وما حولها.
- حق الانتفاع بالفراغات على المشاع ومنها فراغات الساحل أو المطلة على الكورنيش، تلك التي من المفترض توفيرها كمجال للاستمتاع لكل الناس، ويظهر التشريع هنا للحد من تخصيص الملكيات التي تحرم الأفراد من الاستمتاع بهذه المناطق كغيرهم.
- الارتفاع بالبنيان بشكل يحد من الإضاءة والتهوية لفراغات محددة.
- إمكانية إعداد الفراغات بشكل مرن يستوعب العديد من النشاطات وهو الأمر الذي يوفر قيمة المنفعة العامة والمتجددة.

٥. النتائج والتوصيات العامة

تشكل الأمكنة الخارجية، ممثلة في المناطق المفتوحة، والفراغات العمرانية، الجانب المادي للبناء العمراني، لكل الممارسات الاجتماعيـــة بـــين الناس على مستوى المدينة. تلعب هذه الأمكنة في المدينة العربية دورا مهما في التعبير عن السلوك المجتمعي المتأثر بكل القيم الإنسانية المستمدة مـــن التعاليم الدينية، وهو الأمر الذي يجعل منها أمكنة تمكن من رفع الوضع القيمي أو تدهوره ويبدو ذلك في انعكاساته على العمران المعاصر، ويمكـــن للمصمم الواعي والذي لديه الخبرة والدرايه بالعمل في المجتمعات العربية- أن يعبر تعبيرا صادقا عن كل ملامح القيم في النتاج البنـــائي العمـــراني العربي.

ومن ثم تقدم هذه الدراسة بعض الخطوط الإرشادية للحفاظ على الارتقاء بالفراغات العمرانية في المدينة العربية:

١- استهدف هذا العمل بشكل أساسي الإشارة إلى خصوصية دور القيم الإنسانية كموجة لتطوير المناطق المفتوحة والفراغات العمرانية بما يتناسب مع متطلبات البيئة العربية المعاصرة. مع التأكيد على أن كل ما ينفذ بالفعل الآن يحمل بدرجات مختلفة ملامح النجاح أو الإخفاق في التعبير عن التوازن بين المتطلبات القيمية العربية والتقنيات المعاصرة. كما تلعب القيم الإنسانية الحاكمة للممارسات الحياتية في الوسط الخارجي دورا في التمهيد نحو إعادة صياغة الفراغات العمرانية الخارجية بما يتلاءم مع متطلبات المستعمل العربي المسلم. كما تساعد على تعميق الوعي بمدى أهميتها في الحفاظ على الاتزان البيئي بين البيئتين الطبيعية والمشيدة.

٢- يمثل إحداث هذا التوازن القائم على تأكيد انعكاسات القيم الإنسانية في النتاج البنائي والاستعمال الموفق لمعطيات العصر تحديا للمخطط/ المصمم في اتجاه تصويب دوره من مجرد النقل والتقليد إلى الاختيار والابتكار والإبداع، على الرغم من صعوبة ذلك نتيجة الانخفاض الكم التراثي العربي الذي يمكن الاستفادة به في جانب التعامل مع الفراغات العمرانية، حيث من الملاحظ دورها المحدد في تكوين المدينة العربية التقليدية من جهة وعدم الفهم أو القدرة على استنباط القيم والمبادئ الإسلامية في عمارة البيئة من جهة أخرى.

٣- تساهم علوم عمارة البيئة وتنسيق المواقع والتصميم العمراني بما تحمل من توجهات في صياغة ضوابط عامة في جوانب التعامل مع الموطن البيئي الخارجي، حيث تحمل البيئة الطبيعية رصيدا وافرا من الموارد الطبيعية كالنباتات والجيولوجيا والكائنات الحية والمناظر واتجاهات الرؤية المتعددة التي يمكن الاستفادة منها في تشكيل البيئة الخارجية.

٤- ضرورة التفكير في أن أهمية الموطن البيئي الخارجي تعادل نفس المكانة التي يتمتع بها الوسط الداخلي (المسكن). وكما نجح المعماري في الماضي في تقديم صياغات معمارية تلبي متطلبات الإنسان العربي فإنه بالضرورة يمكن للمصمم العمراني البيئي تقديم وجهات نظر متعددة لصياغة ملامح الوسط الخارجي. وهو الأمر الذي توفره أسس التصميم العمراني في تناول المفردات البيئية مثل: البوابات، والساحات، والبوا كي، والحدود والفواصل، والتغطيات، والتشطيبات والمعالجات السطحية، وتغير المستويات، ومساقط المياه. كما تساعد المبادئ المبنية على القيم المادية في تعميق الاستفادة من هذا الحيز الفراغي مثل: التوازن بين الخصوصية العمومية، تداخل وتنوع الاستعمالات، التدرجات الهيكلية، العلاقة بين النشاطات وبعضها وعلاقاتها بمعابر الحركة والاتصال، التشريعات المنظمة للعمران، العوامل المؤثرة على الأداء، المشاهدات والإدراكات المرئية، (جماليات البيئة العمرانية) والتحكم البيئي.

٥- التوجه نحو تحديد نطاقات للحفاظ والتنمية على الفراغات العمرانية وفقا لمنظومة قيم تتوافق مع طبيعة المستعملين- التركيب السكاني والمكاني- في إطار عام وشامل يتضمن التوازن بين الداخل والخارج، بقصد إيجاد بناء للبيئة العمرانية المعاصرة ومنها يمكن تحقيق جانب التفرد والتمايز للبناء العربي لعمارة وعمران المسلمين من خلال استعمال أساليب جديدة تتوافق مع متطلبات العصر الحالي.

٦- بعث إمكانات القدرة على التفكير المتكامل والمتنامي عند إعداد الفراغات العمرانية، حيث لا يعني تناولها خلال بيان تدرجاتها الهيكلية على مقياس كل من المدينة أو المنطقة السكنية أو المسكن دون الفصل عند التصميم بين كل جزء منها والتعامل معه على حده. هذا التكامل يمكن من إعداد مدن مستقبلية تراعي كل الجوانب الحياتية والممارسات المجتمعية العامة وشديدة الخصوصية. فعلى سبيل المثال، يحتاج الفراغ السكني الخاص جدا إلى التعامل معه خلال إطار أعم واشمل من كونه يخدم أسرة واحدة في حيز مكاني منعزل ومفصول عما حوله بقدر ما يكون الإعداد له بشكل يعتبره جزء من منظومة فراغية تحكمها آليات العلاقات الفردية والأسرية والعلاقات القريبة والبعيدة. وكذلك المعاملات الإنسانية التي يمكن ممارستها خلال كل هذه الحيزات المكانية، وهو الأمر الذي يعني توفير محيط عمراني بيئي (اجتماعي) قيمي يجعل الفرد المستعمل يشعر بأنه في كل مرة ينتقل من فراغ إلى فراغ آخر بشكل يستوجب معه تعديل سلوكه أو مزاجه الشخصي ومن ثم حالته النفسية. وانعكاس ذلك يكون بتوفير الإحساس بالمكان والانتماء وا لآمان وحب المكان لكل المقيمين والمستعملين المباشرين والزائرين أيضا، ويصبح نسيج المدينة عبارة عن تكوينات متكررة من الحيزات المكانية الموجبة (عكس الاتجاه السائد عن وجود فراغات سالبة مفتوحة على المشاع) حيث لا يتناسب الانفتاح نحو الخارج بقوة مع تحقيق مجموعة القيم الإنسانية العربية المرغوبة.

٧- الدعوة الملحة لتوجيه مصممي البيئة العمرانية الخارجية نحو التفكير الموضوعي المعاصر حول تكوين تصور عن كيفية تحويل المناطق المفتوحة والفراغات العمرانية إلى مجموعة من الفراغات الحميمة التي يأمن الإنسان العربي بقيمه على التعامل معها دون جرح لخصوصيته المكانية. كذلك الحد من فكرة هجر هذه المناطق وعدم استعمالها. والأمثلة كثيرة في المناطق الساحلية المفتوحة (على الكورنيش) في بعض المدن العربية والتي تم تقسيمها إلى مناطق وفراغات خاصة أو شبه خاصة دون أي تصميم بيئي مناسب. وهنا يبدو دور المصمم البيئي مهما نحو بذل الجهد في إعادة تصميمها بما يتلاءم مع توجه إعداد المدن باعتبارها تكرار متنوع من الفراغات العمرانية ذات الوظائف الحيوية وتعديل أهميتها إلى الدرجة الأولى مثلها في ذلك مثل النشاطات السكنية أو التعلىمية أو غير ذلك من النشاطات الأساسية في المدينة العربية.

٨- إذن أحد مداخل التنمية يكمن في دور المصمم البيئي باعتباره أحد الممارسين في عملية التصميم الأولية للمخططات السكنية دون اقتصار دوره على التشجير أو التجميل أو الأعمال التكميلية. ولعل تجارب مثل التي كانت لكل من (ابتزرهاوردر) Haward في المدن الحدائقية

و(لوكوربورنيه) Lecrbusier في حدائق السطح ورفع المباني على أعمدة للاستفادة من الدور الأرضي بالكامل لتكون مناطق فضاء – تعد خطوات غربية يمكن أن تنطلق منها محاولات عربية تتلاءم مع متطلبات المستعمل العربي.

٩- أما جوانب الحفاظ على الفراغات العمرانية القائمة بالفعل فإنها تكمن وراء البحث عن القيم الإنساني المعبرة عن النشاطات والأحداث التي يمكن ممارستها في هذه الفراغات، ووضع تصور لصياغة هذه القيم لتكون مبادئ مستندة على القيم الإنسانية وليتمكن المصمم بها من رفع كفاء أداء هذه الفراغات.

٦. خاتمة وتوصية

تؤكد الدراسة الحالية على أنه لا يوجد تعارضا على الإطلاق بين ما يردده البعض من أن الحاضر المعاصر لمعطيات العصر يمثل تحديا للمخطط / المصمم في اتجاه تصويب دوره من مجرد النقل والتقليد إلى الاختيار والابتكار والإبداع. فعلى الرغم من صعوبة الاستفادة من معطيات الماضي لانخفاض الكم التراثي العربي الذي يمكن الاستفادة به في جوانب التعامل مع الفراغات العمرانية من جهة، وما يقابله من عدم الفهم أو عدم القدرة على استنباط القيم والمبادئ الإسلامية في عمارة هذه الأمكنة في المدينة العربية الإسلامية المعاصرة من جهة أخرى إلا إنه من الملاحظ أهمية ذلك الدور المتمايز في فهم قيم المجتمع (في السابق والآن) وبيان اسهامات ذلك الفهم في تكوين عمران المدينة العربية المعاصرة، وهو الأمر الذي يدعو المخططين والمصممين إلى تعميق دراسة العلاقة بين القيم والغراغات في المدينة العربية والاهتمام بها لتكون مدخلا لتنمية وتطوير فراغات عمران المدن المعاصرة.